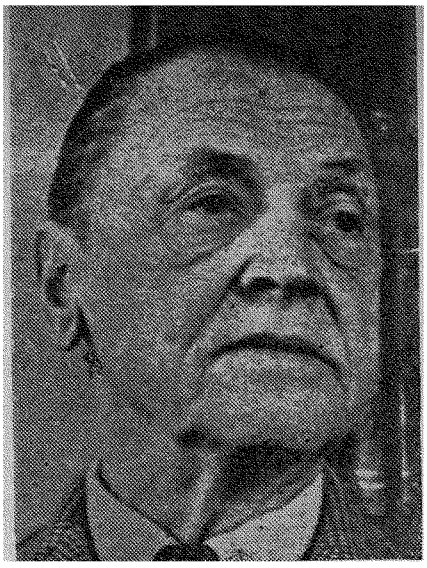

# القصة القصيرة

بقلم سومرست موم

ترجمة حسن بكر

منذ أمد بعيد ، كتب الي محرر موسوعة كبيرة ، جديدة كانت قيد الاعداد ، طالبا مني أن اساهم ببحث عن القصة القصيرة .. كان في البادرة أطراء لي .. سوى اني رفضت . فنظرا لاني نفسي كاتب قصص قصيرة ، شعرت انه لن يتسنى لي أن اكتب بحثا كهذا بالاسلوب الحيادي الذي يقتضيه ، ذلك أن كاتب القصص القصيرة يكتبها بالاسلوب الذي يحسب انه الامثل ، والا فانه سوف يكتبها بطريقة مختلفة . هنالك اساليب كثيرة لكتابتها .. وكل كاتب يختار الاسلوب الذي يتفق ومزاجه. لقد خيل الي أن البحث في هذا الموضوع ، يمكن أن يكون اكثر ايجابية، اذا ما كتبه احد رجال القلم الذي لم يكتب نفسه قط اية قصة .. فليس هنالك ما يمنعه من أن يكون قاضيا نزيها . خذ – على سبيل المثال – قصص هنري جيمس .. لقد كتب عددا منها .. وانها لموضع اعجاب القراء المثقفين الذين ينبغي على المرء ان يحترم اراءهم . وانه ليبدو لي أن من المستحيل على أي واحد عرف هنري جيمس شخصيا ، أن يقرأ قصصه بغير تحيز .. لقد سكب رنين صوته في كل سطر كتبه .. انك لتقبل الاسلوب الملتوي لمعظم اعماله ، وطول نفسه ، وتكلفه لانها كلها جزء لا يتجزأ من سحر الرجل ، ورقة قلبه ، وخيلائه المسلية . سوى أنني – مع كل ذلك – اجد قصصه غير مقنعة ابدا .. اني لا اصدقها .. انا لا اصدق ان اي واحد قادر على أن يتصور عذاب طفل يعاني من اندفتريا ، يستطيع ان يتخيل ان ام الطفل ستتركه يموت على الفور ، على ان تدعه يشب عن الطوق ، لكي يقرأ كتب ابيه . وهذا ما يحدث في قصة بعنوان « مؤلف بلترافيو » .. أحسب أن هنري جيمس لم يدرك قط كيف يتصرف الناس العاديون .. أن شخصياته لا تملك اية امعاء ، او اعضاء تناسلية .. لقد كتب مجموعة من القصص عن رجال القلم .. ويقال انه كان يجيب ، عندما يحتج احد من الناس أن رجال الادب ليسوا كذلك : « لسوء حظهم » . والمعتقد انه لم يعتبر نفسه واقعيا .. ومع أني لا اعلم أن هذه حقيقة ، الا أنني احسب انه نظر الى « مدام بوفاري » برعب .. في احدى المناسبات ، كان « ماتيس » (1) يعرض ، على سيدة احد رسومه ، وكانت لامرأة عارية.. فقالت السيدة باستغراب : « ولكن المرأة ليست كذلك » .. فكان جوابه على ذلك : « انها ليست امرأة ، يا سيدتي .. انها رسم » . وبالطريقة نفسها ، فانني اظن أن هنري جيمس كان سيجيب ، لو ان احدا تجرأ قائلا ان قصة من قصص هنري جيمس لم تكن كالحياة : « انها ليست حياة .. انها قصة » .

لقد اوضح هنري جيمس موقفه من هذه المسألة ، في مقدمة كتبها لمجموعة قصصية سماها « دروس الاستاذ » . انها قطعة صعبة .. ومع اني قرأتها ثلاثا ، الا انني لست موقنا انني فهمتها .. خلاصة القول ، في ظني ، انه من الطبيعي ، حينما يجابه الكاتب « بخطورة مهازل ، وتعاسات الحياة » ، أن يبحث عن « مثل رفيع من ردود الفعل ، أو المعارضة ، أو التهرب » .. وبما انه لا يستطيع أن يجد نماذج من الحياة، لكي يوضح نواياه ، فان عليه ان يخلقها من وعيه . والصعوبة – كما تبدو لي – هي ان على الكاتب ان يعطي هذه المخلوقات التي صاغها « بعض » الصفات الانسانية العامة .. وهي لا تتناسب والصفات التي نسبها اليها عن طيب خاطر ، مما يؤدي الى عجزها عن الاقناع . بيد ان هذا هو انطباعي الشخصي المجرد ، الذي لا اسأل احدا ان يوافقني عليه . ذات مرة ، عندما كان ديزموند مكارثي مقيما معي ، في الريفيرا ، تحدثنا معا ، باسهاب ، عن قصص هنري جيمس .. الذاكرات ضعيفة ، هذه الايام .. وبوسعي أن اذكر القارىء ان ديزموند مكارثي لم يكن نديما جذابا فحسب ، بل وايضا ناقدا ممتازا .. كان واسع الاطلاع .. وكانت له مزية لم يتمتع بها النقاد جميعهم ، ذلك انه رجل عركته الحياة .. كانت احكامه ضمن حدودها ( انه لم يأبه ، نسبيا ، بالفنون التشكيلية والموسيقى ) صائبة ، لان انتقاداته قرنت بمعرفته الثاقبة بالحياة . وفي هذه المناسبة بالذات ، كنا جالسين – بعد العشاء – في حجرة الجلوس .. وفي مجرى الحديث ، تجرأت بأن اشير الى ان معظم قصص هنري جيمس – على الرغم مما فيها من اتقان – تافهة ، بشكل غير مألوف . احتج ديزموند ، الذي كان يكن له اعجابا شديدا ، على قولي هذا .. ولكي اغيظه ، اختلقت – على الفور – ما ادعيت انها قصة نموذجية من قصص هنري جيمس .. واذا لم تخني الذاكرة ، فقد كانت – نوعا ما – كما يلي :

اقام الكولونيل والسيدة بلمب في منزل انيق ، بميدان لاوندس . لقد امضيا ردحا من فصل الشتاء في الريفيرا ، حيث تصاحبا مع بعض الاميركيين الاغنياء ، ويدعون – وتلعثمت باحثا عن اسم – يدعون بريميرتون فيشر . اكرمت عائلة فيشر مثواهما باسراف ، ودعتهما ، في نزهات ، الى لامورتولا ، وايه ، وأفنو .. واصرت بعناد على ان تدفع فاتورة الحساب . وحينما غادرا ، عائدين الى انجلترا ، حثا العائلة المضيفة الكريمة على ان تخبرهما ، بمجرد وصولها الى لندن . قرأت السيدة بلمب ، في ذلك الصباح ، في صحيفة « مورننغ بوست » ان السيد والسيدة بريميرتون فيشر وصلا ، ونزلا في فندق براون . كان واضحا انه جدير بعائلة بلمب أن تفعل شيئا ما ، لكي ترد السخاء المفرط الذي حظيت به . واذا كانا يبحثان ما الذي سيفعلانه ، جاء صديق لهما ، لكي يحتسي معهما فنجانا من الشاي .. وكان هذا مغتربا اميركيا يدعى هوارد ، كان يكن ، منذ وقت طويل عاطفة افلاطونية للسيدة بلمب . وبالطبع ، فانها لم تفكر في ان تذعن لمفازلاته التي لم تكن ، في الواقع ، ملحاحة .. سوى انها كانت علاقة رائعة . كان هوارد من ذلك النوع من الرجل الاميركي ، الذي اصبح – بعد أن أقام في انجلترا عشرين سنة – انجليزيا اكثر من الانجليزي نفسه .. لقد كان يعرف كل ذي مكانة مرموقة .. كما انه – كما يذهب المثل – جاب كل الامكنة .. واطلعته السيدة بلمب على الموقف . اقترح الكولونيل ان يقيما حفلة

(1) هنري ماتيس رسام فرنسي مشهور ، ولد عام ١٨٦٩ وتوفي عام ١٩٥٤ ( المترجم ) .

عشاء للغريبين .. اما السيدة بلمب فلم تكن متأكدة ، ذلك انها كانت تدرك أن الناس الذين غدوت اليفة معهم ، في الخارج ، ووجدتهم ساحرين ، قد يبدون بمظهر مختلف ، عندما تراهم ، مرة اخرى ، في لندن . فاذا ما ارادوا ان يعرفوا عائلة فيشر على اصدقائهما الطيبين — وكان اصدقاؤهما كلهم طيبين — فانهم سيجدنها ثقيلة الظل .. وستكون عائلة فيشر المسكينة « في غير محلها » .. ووافقها هوارد على ذلك ، اذ ان تجاربه المريرة علمته ان حفلة مثل هذه تكون ، دائما تقريبا ، فشلا ذريعا . قال الكولونيل : « لم لا ندعوهما وحدهما الى العشاء ؟ » .. اعترضت السيدة بلمب بأن هذا كفيل بأن يظهرهما بمظهر المستحي بهما، او من لا اصدقاء طيبين له . عندئذ ، اقترح ان يصحبا عائلة فيشر الى المسرح ، ثم أن يتناولوا عشاءهم ، بعد ذلك ، في سافوي .. ولم يبد الاقتراح عمليا . قال الكولونيل : « يجب ان نفعل شيئا ما » .. قالت السيدة بلمب : « اجل ، يجب أن نفعل شيئا ما » .. تمنت لو انه لا يتدخل .. لقد كان يملك كل الصفات الحازمة التي تتوقع ان تجدها في كولونيل في الحرس الملكي ، ذلك انه لم ينل وسام الخدمة الرفيعة اعتباطا . سوى انه كان عديم النفع ، في المسائل الاجتماعية .. لقد شعرت ان هذا الامر يجب أن تقرره هي وهوارد بنفسهما . وهكذا ، وفي صبيحة اليوم التالي ، حينما لم يتم ترتيب أي شيء ، طلبته هاتفيا، وسألته ان يحضر لكي يتناول قدحا من الشراب ، في تمام الساعة السادسة ، حينما يكون الكولونيل يلعب البردج في ناديه .

جاء ، ومنذ ذلك الحين ، دأب على ان يحضر كل يوم .. أسبوع بعد اخر وهو والسيدة بلمب في اخذ ورد .. قلبا الامر على كل وجه ، ومن كل زاوية .. اخذت كل نقطة ، ودرست بدهاء لا يضاهى . ومن ذا الذي يصدق ان الكولونيل كان الشخص الذي قدم الحل ؟ .. فقد حدث ان كان حاضرا ، في احد الاجتماعات العديدة التي عقدت بين السيدة بلمب وهوارد ، بينما كانا يستعرضان — وهما في حالة من اليأس تقريبا — الموقف الصعب ، اذ قال : « لماذا لا تتركين لهما بطاقة؟» .. صاح هوارد : « بالضبط » . تنفست السيدة بلمب الصعداء .. وصوبت نظرة مختالة الى هوارد .. كانت تعرف انه يعتقد ان الكولونيل حمار متكبر ، وغير جدير بها ابدا .. قالت نظرتها : « انظر ، ذلك هو الرجل الانجليزي الحقيقي .. فقد يكون قليل الحذق ، وقد يكون خاملا نسبيا ، ولكنك تستطيع ان تطمئن الى انه سيفعل الشيء الصحيح ، في ساعة الازمة » .

لم تكن السيدة بلمب بالمرأة التي تتردد ، حينما يكون الباب الذي فتح لها خاليا من العوائق .. قرعت الجرس للساقي ، وطلبت اليه ان يعمل على ان تكون المركبة حاضرة ، على الفور . ولكي تقوم بواجب ضيافة عائلة فيشر ، ارتدت اجمل فساتينها ، واعتمرت قبعة جديدة .. اتجهت ، ومحفظة بطاقاتها في يدها ، الى فندق براون ، حيث قيل لها ان عائلة فيشر غادرت الفندق ، صبيحة ذلك اليوم ، متجهة الى ليفربول ، لتأخذ السفينة « كونارد » ، عائدة الى نيويورك .

اصغى ديزموند الى قصتي الساخرة بشيء من الحنق .. قال : « بيد ان ما نسيته يا صديقي ويلي المسكين ، هو ان هنري جيمس كان سيعطي القصة كبرياء كاتدرائية سينت بول التقليدي ، ورعب سينت بانكراس المتزايد ، و .. وروعة ووبيرن المغبرة » .

وعلى هذا ، انفجرنا كلانا ضاحكين .. قدمت له قدحا اخر من الويسكي والصودا .. وفي الوقت المناسب ، افترقنا راضيين عن نفسينا، لكي يذهب كل منا الى حجرة نومه .

— ٢ —

منذ نيف وعشرين سنة خلت ، كتبت للقراء الاميركيين مقدمة لمختارات انتقيتها من القصص القصيرة التي كتبت في القرن التاسع عشر . وبعد بضع سنين ، أستعملت كثيرا مما قلته انذاك ، في محاضرة عن القصة القصيرة ، القيتها امام اعضاء رابطة الادب الملكية . ان كتابي لم ينشر بعد ، في انجلترا .. ونفدت طبعاته ، في اميركا ، منذ امد بعيد .. ومع ان محاضرتي ظهرت في المجلد السنوي الذي تصدره رابطة الادب الملكية ، وتطبع فيه المحاضرات التي القيت امامها ، فانها لم تكن متوفرة الا لاعضائها . وعندما قرأت ، بعد فترة من الزمن ، هاتين المقالتين ، تبينت انني غيرت رأيي في بعض النقاط .. وان تنبؤات معينة ، تكهنت بها ، لم تدعمها الحوادث . في الصفحات التالية ، ومع انني مضطر الى ان اكرر قسما كبيرا مما قلته من قبل ، وبالكلمات نفسها تقريبا ، طالما انني لا اعرف كيف أقول ما يتوجب علي أن اقوله، بطريقة افضل مما قلته في الماضي ، فانني اقترح ان أقدم للقارىء خواطري ، كما هي ، حول شتى انواع الانتاج الادبي الذي ثابرت انا نفسي ، في الماضي ، على ممارسته .

من الطبيعي ان يحكي الناس الحكايات .. واني لاحسب ان القصة القصيرة خلقت في ليالي الزمن ، حينما كان الصياد ، بغية قضاء وقت فراغ زملائه ، بعد ان يكونوا قد ملأوا بطونهم بالطعام والشراب ، يقص — بجانب موقد النار في الكهف — بعض الحوادث الخيالية التي سمع بها . وحتى يومنا هذا ، بوسعك أن ترى ، في مدن المشرق ، القصصي جالسا في السوق ، ومن حوله دائرة من المستمعين اليقظين الذين يصغون اليه ، وهو يقص عليهم القصص التي ورثها من الماضي السحيق. سوى انني افترض ان القصة القصيرة لم تلق الرواج الذي جعل منها ركنا هاما من اركان الادب ، الا منذ القرن التاسع عشر . وبطبيعة الحال ، فان القصص القصيرة كتبت ، من قبل ، وقرئت على نطاق واسع : كانت هنالك القصص الدينية اليونانية النشأة .. وكانت هنالك حكايات القرون الوسطى التهذيبية .. وكانت هنالك قصص الف ليلة وليلة الخالدة . وطوال عصر البعث (١) ، شاعت في ايطاليا ، واسبانيا ، وفرنسا ، وانجلترا نزعة كبيرة للقصة القصيرة ، فكانت مجموعة « ديكاميرون » (٢) لبيكاسيو (٣) ، و « حكايات مثالية » لسيرفانتيس الشواهد الخالدة عليها . سوى ان هذه النزعة تضاءلت بانبعاث الرواية ، فلم يعد بائعو الكتب يدفعون مبالغ كبيرة ثمنا لمجموعة من القصص القصيرة .. واخذ المؤلفون ينظرون بتساؤل ، الى نوع من الكتابة الخيالية لم يجلب اليهم النفع ، أو الشهرة . وعندما كانوا — بين الفينة والفينة — بعد ان يتخيلوا موضوعا لم يستطيعوا ان يعالجوه بنفس اطول ، يكتبون قصة قصيرة ، فانهم لم يعرفوا ما الذي سيفعلونه بها .. وهكذا ، فانهم كانوا ، رغبة منهم في الا يتلفوها ، يحشرونها — احيانا — بسذاجة ، في رواياتهم .

بيد ان نوعا اخر من المطبوعات وضع — في مطلع القرن التاسع عشر — بين يدي القراء ، اكتسب شعبية فائقة .. كان هذا هو المجلد السنوي . ويبدو انه ظهر ، اول ما ظهر ، في المانيا .. كان هذا خليطا

---

(١) انبثق عصر البعث في ايطاليا ، في القرن الرابع عشر ، وامتد حتى القرن السادس عشر . ويعرف ايضا بعصر الاصلاح او النهضة العلمية .. وهو في الواقع ، تلك الحقبة من الزمن التي فصلت بين العصور الوسطى والحديثة . وقد انكب الفنانون والكتاب ، في هذا العصر ، على دراسة انتاج العصور القديمة البسيط ، المتناسق ، في شتى نواحي الفن . ومن خلال تلك الدراسة ، انبعث الحماس للاشياء الانسانية الفانية ، والطبيعية ، وهي التي كان يعبر عنها دائما « بالتمتع الحسي بالحياة ، والرغبة في الاعتداد بالنفس » . وامتد الحماس فشمل اقطار جنوب اوروبا ، والم يصل الى اقطار الشمال الاوروبي — البلدان الاسكندنافية — الا في القرن السادس عشر . وفي هذا القرن — اي القرن السادس عشر — عندما ظهرت في اوروبا النزعات القومية من جهة ، واشتدت سيطرة الكنيسة ، من جهة اخرى ، تصلب عصر البعث ، وغدا الشكل الخارجي للادب تقليدا آليا ، اعمى للقديم ، بينما تحول مضمونه الى نزعة قومية ، او دينية . ( المترجم ) .

(٢) مجموعة مؤلفة من مائة قصة . ( المترجم ) .

(٣) كاتب ايطالي . ( المترجم ) .

من الشعر والنثر .. وزود قرأءه ، في موطن نشأته ، بغذاء عقلي جوهري .. ذلك انه يقال لنا ان « فتاة اورليانز » (1) لشيللر ، و « هيرمان ودوروثيا » لغوته ظهرتا ، بادىء ذي بدء ، في مطبوعات حولية من هذا النوع . ولكن ، عندما ادى نجاحها الى قيام الناشرين الانجليز بتقليدها ، اعتمدوا ـ بصفة رئيسية ـ على القصص القصيرة ، لاجتذاب عدد كاف من القراء ، وذلك حتى يتسنى لهم جني الارباح ، من هذا العمل .

من المناسب أن اتحدث ، الان ، عن التأليف الادبي ، للقاريء الذي اهمل ـ على حد علمي ـ النقاد ، الذين تقع على عواتقهم مسؤولية ارشاده ، وتعليمه ، ان يطلعوه عليه . آن لدى الكاتب حافزا يدفعه لان يخلق .. كما آن لديه ، ايضا ، الرغبة في ان يضع امام القارىء النتيجة التي تمخض عنها عمله ، والرغبة ( وهي رغبة غير مؤذية ، ولا تهم القارىء ) في آن يكسب قوت يومه . وعلى العموم ، فانه يجد ان من الممكن آن يوجه قدرته الخلاقة ، في اتجاهات تتيح له ان يشبع هذه الاهداف المتواضعة .. واذ اجازف بان اصدم القاريء الذي يعتقد بأن الهام الكاتب يجب الا يتأثر بالاعتبارات العملية ، فانني يجب أن اخبره ، ايضا ، ان الكتاب يجدون انفسهم ـ بالطبع ـ مدفوعين لان يكتبوا ذلك النوع الذي يلقون عليه طلبا .. ليس ذلك مفاجئا ، لانهم ليسوا كتابا فحسب ، بل وايضا قراء .. وعليه ، فما داموا اعضاء في المجتمع ، فانهم عرضة للمناخ الفكري السائد . فاذا ما جلبت التمثيليات الشعرية الشهرة ، ان لم يكن الثراء ، للمؤلف فقد يصعب ان تجد شابا ذا ميول ادبية ، لا يملك بين اوراقه مأساة من خمسة فصول . واظن ان شبانا قلائل سوف يفطنون ـ الان ـ الى ان يكتبوا واحدة . انهم ، اليوم ، يكتبون التمثيليات نثرا ، كذلك القصص الطويلة منها والقصيرة . حقا ، أن عددا من التمثيليات الشعرية قد اخرج بنجاح ، في السنوات الاخيرة .. الا انه بدا لي ، حينما اتيحت لي فرصة مشاهدتها ، ان المتفرجين تقبلوا الشعر كشيء لا بد لهم من ان يحتملوه ، أكثر مما كان شيئا يستسيغونه .. اما الممثلون ، اذ احسوا معظم الوقت بذلك ، فقد بذلوا قصارى جهودهم لكي يخفوا عدم ارتياحهم ، وذلك بأن نطقوا الشعر كما لو انه كان ، في الواقع ، نثرا .

ان لامكانية النشر ، واحتياجات المحررين ، اي تصورهم لما يريده القراء ، تأثيرا كبيرا على نوع العمل الذي يتم انتاجه ، في حقبة معينة من الزمن . وهكذا ، فعندما تزدهر المجلات التي تتسع للقصص ذات الاطوال الكبيرة ، تكتب القصص بذلك الطول .. ومن جهة اخرى ، عندما تنشر الصحف القصص ، ولكنها لا تستطيع ان تخصص لها اكثر من فراغ بسيط ، فان قصصا تزود لملء ذلك الفراغ .. وليس في ذلك ما يعيب ، فان بوسع الكاتب الكفؤ آن يكتب قصة من ألف وخمسمائة كلمة ، بالسهولة نفسها التي يكتبها فيها في عشرة الاف كلمة .. ولكنه يختار قصة مختلفة ، او يعالجها باسلوب اخر . لقد كتب « غي دي موباسان » واحدة من اشهر حكاياته ، « الميراث » ، مرتين ، مرة لاحدى الصحف ، في بضع مئات من الكلمات ، وفي المرة الثانية لمجلة ، في بضعة الاف كلمة .. وكلتاهما منشورتان في طبعة لمجموعة اعماله .. واظن ان احدا لا يستطيع ان يقرأ القصتين دون آن يعترف ان كلمة واحدة لم تنقص الاولى ، ولم تكن زائدة في الثانية . والنقطة التي اود ان اثيرها هي : آن طبيعة الوسيلة التي يدنو بها الكاتب من جمهوره واحدا من الاعراف التي لا بد له من آن يتقبلها .. وانه يتبين ـ على وجه العموم ـ ان بوسعه ان يفعل هذا ، دون اي انتهاك لميوله الخاصة .

ان المجلد السنوي ، والهدايا قد هيأت ـ في مطلع القرن التاسع عشر ـ للكتاب وسيلة لتقديم انفسهم للجمهور ، بواسطة القصة القصيرة .. وهكذا ، فان القصص القصيرة ـ اذ اصبحت تخدم غاية اسمى من جذب اهتمام القاريء ، لبرهة ، من خلال زجها في الرواية الطويلة ـ اخذت تكتب باعداد اكبر من اي وقت مضى . لقد قيل في المجلد السنوي ، وفي كتاب السيدة الشيء الكثير من القول الصعب .. وأكثر واشد من ذلك ، قيل في المجلة التي خلفتهما بالنسبة لاقبال الجمهور. سوى انه يندر ان ينكر ان الفيض الوفير من القصص التي انتجت ، في القرن التاسع عشر ، كان نتيجة مباشرة للفرصة التي هيأتها هذه المطبوعات . ففي اميركا ، ادت الى قيام مدرسة من الكتاب الافذاذ ، الفزيري الانتاج ، حتى ان بعض الاشخاص ، غير الملمين بتاريخ الادب ، ادعوا ان القصة القصيرة ابتكار اميركي .. وليس الامر كذلك ، بالطبع .. الا انه لا بد من ان يقرر بأن هذا النوع من القصص لم يستغل ، في اي بلد اوروبي ، مثلما استغل في الولايات المتحدة .. كذلك ، فان اساليبه ، وسبكه ، وامكانياته لم تدرس بعناية ، في اي مكان اخر ، مثلما درست هنالك .

من خلال قراءتي ، من اجل كتابي ، لعدد ضخم من القصص التي كتبت في القرن التاسع عشر ، تعلمت الكثير عن طريقة الصياغة. والان، فان علي ان احذر القاريء من ان المؤلف ـ كما قلت في صفحة سابقة ـ منحاز ، حينما يمارس فنا من الفنون .. انه يكتب كما يقدر ، وكما يجب أن يكتب ، لانه نوع معين من البشر .. آن له اعضاءه ، ومزاجه الخاص ، حتى انه ليرى الاشياء بطريقة غريبة عليه ، ويعطي خياله الهيئة التي فرضتها طبيعته عليه .. انه يحتاج الى حيوية عقلية فريدة لكي يؤيد عملا مخالفا لميوله الفطرية . يجب على المرء آن يأخذ حذره ، حينما يقرأ نقد القصصي لقصص الاخرين .. انه عرضة لان يبحث عن ذلك الابداع الذي يستهدفه هو نفسه .. ويحتمل الا يرى الا النزر اليسير من الجدارة ، في المزايا التي تنقصه . ان افضل ما قرأت من الكتب عن الرواية ، كتا بمن تأليف كاتب مبدع ، لم يستطع قط ـ في حياته ـ ان يكتب قصة معقولة . ولم افاجأ ، عندما وجدت انه لم يحترم كثيرا الكتاب الذين لا تعدو اعظم مواهبهم آن تكون قدرتهم على اعطاء الحوادث التي يروونها صبغة من الصدق . انني لا الومه على هذا .. فالصبر مزية حسنة من مزايا الانسان .. ولو انها كانت اوسع انتشارا، لكان عالم اليوم مكانا افضل للحياة ، مما هو عليه الان .. سوى انني لست على يقين من انها بمثل هذه الجودة بالنسبة للكاتب .. فما الذي سيعطيك اياه ، على طول المدى ؟ .. نفسه . جميل ان يكون خياله رحبا ، لان الحياة ، بكل ابعادها ، مجال اختصاصه .. ولكنه يستطيع ان يراها بعينيه فقط ، وان يتفهمها باعصابه ، وقلبه ، واحشائه : ان معرفته متحيزة ، بطبيعة الحال .. الا انها ذات خصائص متميزة عن سواها ، لانه شخص نفسه ، وليس شخصا اخر .. ان رأيه قاطع ومميز .. فاذا ما شعر ، حقا ، ان اية وجهة نظر اخرى سارية كوجهة نظره ، فانه قلما يتشبث ، بقوة ، بوجهة نظره .. ولا يحتمل ان يقدمها بعنف . جميل ان يرى المرء ان للسؤال جانبين .. سوى آن الكاتب ، وجها لوجه مع الفن الذي يمارسه ، يستطيع فقط ان يرى هذا الرأي بواسطة مجهود من الاستنتاج المنطقي .. وانه يشعر ، في قرارة نفسه، ان الامر لا يؤلف ستة من نوع ، ونصف « دزينة » من النوع الاخر .. وانما هو اثنا عشر الى جانبه ، وصفر الى الجانب الاخر .. ان هذه اللامعقولية ستكون شؤما لو ان الكتاب كانوا قلائل .. او لو آن تأثير احدهم كان بالغا ، بحيث يكره الاخرين على اتباعه .. غير آن هنالك الالاف منا .. وكل واحد منا لديه رسالة ـ وهي رسالة محددة ـ لكي يبلغها .. ومن بين هذه الرسالات ، يستطيع القراء ان يختاروا، حسب اذواقهم الخاصة ، ما يناسبهم .

لقد قلت هذا لكي امهد الطريق . انني افضل من القصص ذلك النوع الذي استطيع انا نفسي ان اكتبه .. وهذا النوع من القصة كتبه عدد كبير من الناس باجادة ... سوى ان احدا لم يكتبها بعبقرية اكبر مما كتبها « موباسان » . وهكذا ، ولكي أبين طبيعتها ، فانه لا يسعني ان افعل اي شيء افضل من ان اناقش قصة من اشهر انتاجه ، هي «الحلي» .. ولسوف تلاحظ شيئا واحدا عنها ، الا وهو ان بوسعك آن تقصها حول مائدة العشاء ، أو في قاعة التدخين في احدى السفن ، وان تجعل مستمعيك يصغون اليك بانتباه . تدور القصة حول حادث غريب ، الا

(1) جان دارك . ( المترجم ) .

موباسان

انه ليس بعيد الاحتمال . يوضع المشهد أمامك بايجاز ، كما يتطلب الوسيط ، ولكن بوضوح .. أما الاشخاص المعنيون ، ونوع الحياة التي يحيونها ، وفسادهم فانها تقدم اليك بالقدر الكافي فقط ، من الوصف الضروري لايضاح ظروف القضية .. كل ما هو ضروري لك ان تعرفه ، يقال لك .. وفي حالة ما اذا كان القارىء لا يتذكر القصة ، فانني سأرويها باقتضاب . ماتيلدا زوجة لكاتب فقير ، في وزارة التربية والتعليم .. يدعوها الوزير الى حفلة مسائية .. ولما لم تكن تملك اية جواهر ، فانها تستعير عقدا ماسيا من صديقة قديمة ، عرفتها منذ أيام الدراسة .. وتفقده . لم يكن بد من تقديم بديل له .. وبأربعة وثلاثين الف فرنك ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لهما ، استدين بفائدة فاحشة ، يقوم الكاتب وزوجته بشراء عقد مماثل تماما للعقد المفقود . ولكي يدفعا دينهما الساحق ، كان لا بد لهما من ان يعيشا في فقر مدقع .. واخيرا ، عندما فعلا ذلك ، اخبرت ماتيلدا صديقتها الغنية بما حدث . وتقول صديقتها : « ولكن العقد ، يا عزيزتي ، كان مزيفا .. ان ثمنه لم يتجاوز خمسمائة فرنك » .

قد يعترض الناقد المتحذلق ان « الحلي » ، بالنظر اليها من بيئتها، ليست قصة متقنة ، لان الرواية ، من هذا النوع ، يجب ان تكون لها بداية ، ومنتصف ، ونهاية .. فاذا ما بلغت النهاية ، كانت القصة كلها قد حكيت .. انك لن تتمنى ، ولن تحتاج الى ان تسأل اي سؤال اضافي ، ذلك ان كلماتك المتقاطعة قد ملئت .. ولكن موباسان ـ في هذه الحالة ـ اكتفى بنهاية تهكمية ، ومؤثرة . فلما يحجم القارىء المتمرس عن ان يسأل نفسه ، ماذا بعد ؟.. حقا ، ان الزوجين التعيسين قد اضاعا شبابيهما ، ومعظم ما يجعل الحياة سارة ، في السنين الكئيبة التي امضياها وهما يدخران النقود ، لكي يدفعا ثمن العقد المفقود .. بيد انهما كانا سيجدان نفسيهما يملكان ثروة صغيرة ، اذا ما اعيد اليهما العقد الذي اشترياه ، بعد ان تم اكتشاف خطأهما .. وما كانت تلك لتبدو تعويضا غير معقول ، عن الجدب الروحي الذي جلبته عليهما تضحيتهما . فضلا عن ذلك ، فلو ان المرأة التعيسة لم تكن شديدة الحساسية ، بحيث كان من الممكن ان تذهب الى الصديقة ، وتخبرها عما فقدته ـ ولم يعط اي سبب لما منعها من ان تفعل ذلك ـ لما كانت هنالك اية قصة . انه لمن دواعي الابداع بالنسبة لموباسان ، أن يكون القراء الذين احتفظوا بوعيهم ، حتى ليفطنوا الى هذه الاشياء ، قليلي العدد . ان كاتبا مثل موباسان لا يقلد الحياة ، بل يرتبها ترتيبا افضل ، لكي يجلب الاهتمام ، ويثير ، ويفاجيء .. انه لا يستهدف نسخ الحياة ، بل جعلها مؤثرة .. انه مستعد لان يضحي بالمعقول ، في سبيل النتيجة التي يتوخاها .. والامتحان هو ما اذا كان بوسعه ان يفلت من ضبطه متلبسا بذلك . فاذا ما رتب الحوادث التي يصفها ، والاشخاص المعنيين بها ، بشكل يتيح لك ان تفطن الى العنف الذي الصقه بهم ، فانه يكون قد فشل . ولكن فشله ـ احيانا ـ ليس نقطة جدل ضد الاسلوب . في بعض الاحيان ، يحرص القراء على التشبث بحقائق الحياة ، كما يعرفونها ـ وعندها تكون الواقعية ساندة .. وفي احيان اخرى ، فانهم ، اذ لا يكترثون بهذا ، يطالبون بالغريب ، والشاذ ، والمدهش .. ومن ثم فان القراء ـ طالما بقوا هنالك ـ مستعدون لان يرجئوا عدم التصديق ، عن طيب خاطر . ليس الجائز امرا ثابتا .. انه يتغير مع اتجاهات الزمن .. انه ما تستطيع ان تجعل قراءك يهضمونه . الواقع أن في كل القصص الخيالية انواعا معينة من اللامعقول ، التي يسلم بها دونما تساؤل ، لانها غالبا ما تكون ضرورية لكي تساعد الكاتب على ان يستأنف قصته بلا تأخير .

ان احدا لم يضع بدقة قواعد ذلك النوع من القصة الذي اناقشه الان ، اكثر مما فعل « ادغار آلن بو » .. ونظرا لطولها ، فانني سأقتبس تقريظه كاملا « لحكايات حكيت مرتين » لهوثورن . فان هذا التقريظ تضمن كل ما يمكن أن يقال عن الموضوع . وسوف اكتفي بنبذة قصيرة :

« فنان ماهر يضع حكاية .. فاذا كان عاقلا ، فانه لن يصوغ افكاره بحيث تلائم حوادثه .. ولكنه ، اذ يكون قد تخيل ، بعناية وترو ، شيئا فريدا معينا ، او نتيجة يريد لها ان ترى النور ،يختلق ـ بعدئذ ـ مثل تلك الحوادث .. ومن ثم فانه يستنبط تلك المؤثرات التي يمكن ان تكون خير عون له ، في تقرير النتيجة التي تخيلها من قبل . فاذا ما جنحت جملته الاولى الى عدم ابراز هذه النتيجة ، كان الفشل ـ عندئذ ـ قد لازم خطوته الاولى .. يجب الا تكتب ، في التأليف كله ، كلمة لم يكن وقعها ، المباشر منه وغير المباشر ، مناسبا للمخطط الذي اعد مسبقا . بمثل هذه الوسائل ، وبمثل تلك العناية والمهارة ، يتم ـ على طول المدى ـ رسم الصورة التي تترك في انطباعات من يقارنها بالفن المماثل، شعورا بالرضى الكامل .. فقد تم تقديم فكرة القصة دون ان تشوبها شائبة ، ذلك لانها لم تشوش ... »

( ٣ )

ليس صعبا ان نقرر ما الذي قصده « بو » بالقصة القصيرة الجيدة .. انها قطعة خيالية ، تعالج حادثا واحدا ، روحيا كان ام ماديا ، ويمكن ان تقرأ في جلسة واحدة .. انها مبتكرة ، ويجب أن تشع ، وتثير ، وتؤثر .. يجب ان تكون لها وحدة تأثير ، أو انطباع .. يجب ان تسير على خط مستقيم ، منذ بدايتها حتى نهايتها .. ليس سهلا ـ كما يتخيل البعض ـ ان تكتب قصة على المبادىء التي وضعها . ان ذلك يتطلب ذكاء ، قد لا يكون رفيع الدرجة ، الا انه من نوع خاص .. انها تحتاج الى احساس بالتنظيم ، وقسط غير قليل من القدرة على الابتكار . لا يوجد ، في انجلترا ، من كتب بناء على هذه الخطوط أفضل من روديارد كيبلنغ .. انه وحده ، من بين كتاب القصة القصيرة الانجليز ، الذي يمكن ان يقارن مع كبار الكتاب الروس ، والفرنسيين .. انه ، في الوقت الحاضر ، مبخوس القدر ، بغير ما حق . ذلك امر طبيعي .. فعندما يقضي كاتب مشهور نحبه ، تنشر كلمات التأبين في الصحف .. ويقوم كل من تعامل معه ، حتى وان لم يزد ذلك عن تناول فنجان من الشاي في صحبته ، بالكتابة الى صحيفة « التايمز » ، واصفا ما حدث . وان هما الا اسبوعان ، حتى يصبح مادة غير اخبارية ، ويكرس بهدوء بالغ للنسيان . ومن ثم ، فاذا كان محظوظا ، فانه ، بعد عدد من السنين ، قد تطول او تقصر ، يتذكر ، ويعاد الى حظوة الجمهور . وانطوني ترولوب اكبر مثل على ذلك ، بالطبع .. فبعد جيل من الاهمال ، اكتسبت رواياته ، بعد التغيير الذي طرأ على الحياة الانجليزية ، سحرا اخاذا ، ادى الى اجتذاب عدد ضخم من القراء .

مع آن روديارد كيبلنغ حظي باعجاب جمهور غفير ، منذ اوائل حرفته ، واحتفظ به ، الا ان الرأي المثقف كان دائما مترددا ، نوعا ما ، في مديحه له .. ذلك ان خصائص معينة ، في اسلوبه ، كانت مملة للقراء من ذوي الاذواق المتأنقة .. لقد اقترن اسمه باستعمار كان بغيضا بالنسبة لعدد كبير من الاشخاص الحساسين ، والذي اصبح ـ الان ـ

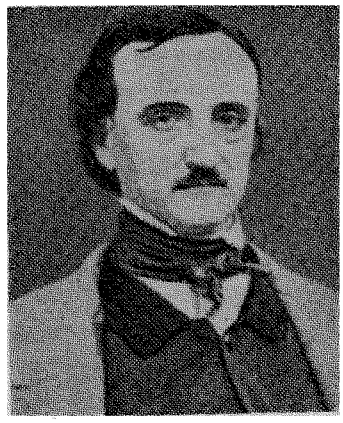

ادغار ألن بو

مبعث اذلال .. كان قصصيا بارعا ، ومختلفا ، واصيلا .. وكانت لديه قدرة خلاقة ، وموهبة رفيعة الدرجة في رواية الحوادث بأسلوب درامي، مذهل . كانت له اخطاؤه ، كما لكل كاتب .. أما اخطاؤه فكانت ـ فيما اظن ـ ترجع الى محيطه ، وتنشأته . كان نفوذه على زملائه الكتاب بالغا .. ولعل نفوذه كان ذا اثر اشد من ذلك ، على اولئك الرجال الذين عاشوا ، بطريقة او بأخرى ، حياة كالتي كان يعالجها . كان من المذهل ان يصادف المرء ، حينما كان يتجول في الشرق ، العديد من الرجال الذين جعلوا من انفسهم نماذج مطابقة للمخلوقات التي ابتكرها . يقولون ان شخصيات بلزاك كانت اكثر انطباقا على الجيل الذي جاء بعده ، مما كانت على الجيل الذي اراد ان يصفه . انني اعرف ، من تجربتي ، انه كان هنالك ـ بعد مرور عشرين عاما على كتابة كيبلنغ لقصصه الاولى المهمة ـ بعض الرجال المنتشرين في اطراف قصية من الامبراطورية ، الذين ما كانوا ليصبحوا ما اصبحوه لولاه .. انه لم يخلق الشخصيات فحسب ، بل وصاغ ، ايضا ، الرجال .. كانوا رجالا شجعانا ، محترمين اولئك الذين ادوا الاعمال التي اوكلت اليهم ، على ضوء معرفتهم ، بكل ما لديهم من مقدرة : وانه لمن المؤسف ان يكونوا ، لاسباب لا حاجة بي الى ان اخوض فيها ، قد خلفوا وراءهم تركة مثقلة من الكراهية . ويفترض ـ عموما ـ ان روديارد كيبلنغ نبه وعي الشعب البريطاني الى امبراطوريته .. ولكن هذه انجازات سياسية ، لا يجدر بي ان اعالجها هنا . ان الشيء المهم بالنسبة لغرضي الحالي ، هو انه باكتشافه لما يسمى بالقصة الخارجية ، فتح مجالا مثمرا للكتاب . مسرح هذه القصة بلد لا تعرف اغلبية القراء عنه الا الشيء القليل .. وهي تعالج ردود الفعل حول الرجل الابيض ، في اقامته بالارض الغريبة ، والاثر الذي تركه عليه احتكاكه بشعوب من لون ، وجنس اخر . لقد مارس الكتاب الذين جاءوا من بعده ، هذا الموضوع ، بأساليبهم المختلفة .. سوى ان روديارد كيبلنغ كان اول من أنار السبيل ، في هذا المجال الحديث الاكتشاف .. وما من احد استثمره بسحر رومنطيقي اكبر .. ما من احد قدمه بجلاء اشد ، وبمثل هذه الثروة من الالوان .. لسوف يجيء الوقت الذي يصبح فيه احتلال البريطانيين للهند تاريخا قديما .. اليوم الذي لن يثير فيه فقدان تلك المستعمرة الكبيرة من الشجون والاسى ، اكثر مما يثيره فقدان النورماندي ، واكويتين ، منذ بضعة قرون .. وعندها ، سيفهم ان روديارد كيبلنغ ، في حكاياته الهندية ، في « كتب الغابة » ، وفي « كيم » ، قد كتب اعمالا ستحتل بفخر ، مكانتها في ادبنا الانجليزي العظيم .

يسأم الناس حتى من الاشياء الحسنة .. انهم يطالبون بالتغيير. ولنضرب على ذلك مثلا فنا اخر : وصلت الهندسة المعمارية ، في الحقبة الجورجية (١) ، كمالا نادرا .. كانت البيوت التي شيدت آنذاك ، حسنة المنظر ، والعيش فيها مريح .. فالحجرات واسعة ، جميلة ، متناسقة .. كنت تحسب ان الناس سيقتنعون بهذه البيوت ، الى الابد . ولكن لا.. لقد اقتربت المرحلة الرومنطيقية ، فارادوا الانيق ، والكثير الزخارف ، والمبهج .. وشيد لهم المهندسون المعماريون بسرور ما ارادوا . انه لمن الصعب ان تبتكر قصة كالتي كتبها « بو » .. حتى انه هو ، كما نعلم جميعا، كرر نفسه، اكثر من مرة، في انتاجه القليل .. ان في هذا النوع من الحكايات، قدرا كبيرا من التحايل . وحينما اشتد الطلب على هذه الحكايات، بعد ان ظهرت المجلات الشهرية واكتسبت شعبية فورية، لم يتباطأ الكتاب في ان يتعلموا الحيل. ولكي يجعلوا قصصهم مؤثرة، فقد فرضوا عليها شكلا تقليديا .. ولم يلبثوا ان انحرفوا بعيدا عن المعقول ، في تصويرهم للحياة ، حتى ان قراءهم ثاروا . لقد ملوا من القصص المكتوبة على نمط عرفوه جيدا .. واحتجوا بأن الاشياء لا تمضي ، في الحياة الحقيقية ، بهذا الاتقان .. فالحياة الحقيقية عبارة عن خيوط مقطعة ، واطراف غير منتظمة .. وترتيبها على نسق مجرد زيف .. وطالبوا بواقعية اكثر . الان ، فان نسخ الحياة لم يكن ، قط ، من شأن الفنان .. لقد اوضح « السير كينيث كلارك » هذه النقطة ، في كتابه « العارية » ، ايضاحا تاما . بين لنا ان كبار المثالين القدماء في اليونان ، لم يلتزموا بوصف « موديلاتهم » بواقعية محكمة ، بل اتخذوا منها وسيلة للوصول الى مثلهم الاعلى في الجمال . اذا ما نظرت الى لوحات وتماثيل الازمان الغابرة ، فانك لا بد وان تفاجأ ، حينما تلمس المدى القليل الذي شغل الفنانون به انفسهم ، في نقل ما وقعت عيونهم عليه ، نقلا محكما .. ان الناس خليقون بأن يحسبوا ان التشويه الذي فرضه الفنانون التشكيليون على موادهم ـ وافضل مثل على ذلك فنانو الامس التكعيبيون ـ هو من ابتكار ازماننا . الامر ليس كذلك .. انهم يظنون ذلك ، فقط لانهم تعودوا كثيرا على تشويهات الماضي ، حتى انهم يتقبلونها على انها الحقيقة عينها . فمنذ الايام الاولى للرسم الغربي ، ضحى الفنانون بالمعقول ، في سبيل النتيجة التي يجدون في طلبها . والامر كذلك بالنسبة للقصة .. ولن نذهب بعيدا ، فهذا « بو » خير شاهد . شيء لا يصدق ان يكون قد ظن ان الناس يتحدثون بالطريقة التي جعل شخصياته يتحدثون بها : فاذا كان قد وضع على السنتهم حوارا يبدو لنا ممعنا في اللاواقعية ، فمرد ذلك لا بد وان يكون نتيجة لظنه ان هذا الحوار يناسب نوع القصة التي كان يقصها ، ويساعده على الوصول الى الغرض المتعمد الذي نعرف انه وضعه نصب عينيه . لقد اولع الفنانون باللواقعية ، عندما حملوا عليها ، حتى انهم اوغلوا في الابتعاد عن الحياة ، بحيث امسى الرجوع امرا ضروريا . شغلوا انفسهم ، حينئذ ، بنسخها بأكبر قسط من الدقة ، لا كغاية في حد ذاتها ، ولكن ، ربما ، كنظام مفيد .

في القرن التاسع عشر ، جاءت اللواقعية ، في القصة القصيرة ، نتيجة لردود الفعل نحو الرومنطيقية التي غدت مملة . وحاول الكتاب ، الواحد تلو الاخر ، ان يصوروا الحياة بصدق لا ينثني . قال « فرانك نوريس » : « اني ما تزلفت قط .. وما خلعت القبعة للموضة ، ومددتها من اجل بنسات .. اقسم بالله انني قلت ـ آنذاك ـ لهم الصدق !.. وسواء أحبوه ، ام كرهوه ، فما شأني وذاك ؟.. لقد قلت لهم الصدق.. كنت ـ آنئذ ـ موقنا انه الصدق .. واني اعرف ـ الان ـ انه الصدق.» .. ( هذه كلمات جريئة . سوى انه من الصعب ان تعرف الصدق ، ذلك انه ليس ، بحكم الضرورة ، مضادا للكذب ) .. نظر كتاب هذه المدرسة الى الحياة نظرة اقل تحيزا ، من الجيل الذي سبقهم .. كانوا اقل عذوبة ، واقل تفاؤلا ، واكثر عنفا ، واستقامة .. وكان حوارهم اكثر واقعية ، وشخصياتهم اختاروها من عالم اهمله كتاب القصة ، نوعا ما ، منذ ايام « ديفو » .. ولكنهم لم يبتدعوا في الصياغة اي شيء . اما فيما يختص بضروريات القصة القصيرة ، فانهم ارتضوا النماذج القديمة .. وكانت النتائج التي جدوا في طلبها ، النتائج نفسها التي توخاها « ادغار ألن بو » ، ذلك انهم استعملوا القالب نفسه الذي وضعه .. ان مميزاتهم تثبت جدارتها ، بينما يدل تكلفهم على الضعف .

(١) نسبة الى الملك جورج

روديارد كيبلنغ

( ٤ )

سوى أنه كان هنالك بلد لم تطغ فيه الصيغة الا قليلا .. ففـــي روسيا ، كانوا ـ طيلة جيلين من الزمن ـ يكتبون على نسق اخر . وعندما فرضت الحقيقة نفسها على انتباه كل من القراء ، والكتاب ، من أن ذلك النوع من القصة ، والذي لقي اقبالا ، ردحا من الزمن ، تحول الى شكل آلي ، ممل ، اكتشف انه كانت ، في ذلك البلد ، طائفة من الكتاب الذين جعلوا ـ الى حد ما ـ من القصة القصيرة شيئا جديدا . ومن الطريف ان يكون هذا الصنف المتنوع من الحكايات القصيرة قد أخذ زمنا طويلا ، لكي يصل الى العالم الغربي . حقـــا أن قصص « تيرجينيف » ترجمت الى الفرنسية .. وانه لقي حظوة عند « الاخوين دي غونكور » (١) ✶ ، و « فلوبير » ، والاوساط المثقفة التي اختلطوا فيها ، وذلك بسبب علو مكانته ، ووفرة موارده ، ونشاته الارستقراطية .. أما اعماله ، فقد لقيت اعجابا معتدلا ، كذلك الذي يمنحه الفرنسيون ، دائما ، لانتاج الكتـاب الاجانب .. كان موقفهم يشبه موقف « الدكتور جونسون » مـــن قيـام المرأة بالوعظ : « انه لا يؤدي بطريقة حسنة .. ولكنك ستفاجأ لمجرد ان تجد انهن ادينه على الاطلاق » . ولم يصبح للادب الروسي ادنى تأثيـــر على عالم باريس الادبي ، الا بعد ان نشر « ميلشيور دي فوغي » ، عـام ١٨٨٦ ، كتابه « القصة الروسية » .. بعدها ، وفي حوالي عام ١٩٠٥ ، فيما اظن ، ترجمت مجموعة من قصص « تشيكوف » الـى الفرنسية .. واستقبلت ، على العموم ، استقبالا حسنا . بقي شبه معروف ، فـــي انجلترا .. وعندما توفي ، عام ١٩٠٤ ، اعتبره الروس اكبر كاتب فـــي عصره : ولم تجد الموسوعة البريطانية ، فـــي الطبعة الحادية عشرة ، المنشورة عام ١٩١١ ، ما تقوله عنه اكثر من : « ولأن آ. تشيكوف أظهر قدرة كبيرة في قصصه القصيرة » . ثناء بارد . لم يهتم القراء الانجليز به ، الا بعد أن قامت السيدة « غارنت » باصدار نخبة مـــن انتاجـــه الضخم ، في ثلاثة عشر مجلدا صغيرا .. ومنذ ذلك الحين، غدت شهرة الكتاب الروس ضخمة . لقد ساهمت الى حد بعيد ، في تحويل الكتابة، وتذوق القصص القصيرة . يعرض القراء النقاد ، بلا مبالاة ، عن القصة المعروفة بأنها « حسنة السبك » ، من الناحية التكنيكية .. بينما لا يلقى الكتاب الذين ينتجونها ـ قياسا برضاء الاغلبية الساحقة من الجمهور ـ الا النزر اليسير من الاعتبار .

ارخ «ديفيد ماعارشاك» حياة تشيكوف . انها سجل من الانجازات التي احرزت بالرغم من الصعوبات المريعة ـ الفقر ، والواجبات الثقيلة، والمحيط المزعج ، والصحة المعتلة .. ومـن هذا الكتاب الشيق ، المدعم بالوثائق ، حصلت على الحقائق التالية : ولد تشيكوف عـــام ١٨٦٠ .. كان جده قنا ، جمع مالا كافيا لشراء حريته ، وحرية ابنائـــه الثلاثة . افتتح ـ فيما بعد ـ احدهم ، واسمه بافيل ، حانوتـــا للسمانة ، فـــي تاغانروغ ، الواقعة على بحر آزوف .. وتزوج ، ورزق خمسة ابنـــاء ، وابنة واحدة . كان انطون تشيكوف ابنه الثالث .. أما بافيل فكان أميا، أحمق ، مغرورا ، انانيا ، فظا ، متدينا . وبعـد مرور سنوات عديـدة ، كتب تشيكوف عنه : « اذكر ان والدي أخذ يعلمني ، وأنا في الخامسة .. او دعني اقول ببساطة ، اخذ يجلدني وأنا لمـــا أزل في الخامسة مـــن عمري . لقد جلدني ، ولكمني ، وضربني على رأسي .. وكان اول سؤال لي أسأله ، عندما افيق ، في الصباح ، من نومي ، هو هل ساجلد اليوم، مرة اخرى ؟.. كان اللعب ، أو اللهو محظورا علـــي .. وكنت ملزما بأن احضر الصلوات الصباحية والمسائية في الكنيسة ، وان اقبـــل ايادي القسيسين والرهبان ، وان اقرأ التراتيم الدينية ، في البيت ... وكان علي ، بعد ان بلغت الثامنة من العمـر ، ان أرعى الدكان ، حيث عملت كأي ساع عادي . اثر ذلك في صحتي ، لانني كنت أجلد كل يوم . بعـد ذلك ، وحينما أرسلت الى مدرسة ثانوية ، كنت أدرس حتى الظهيرة .. بيد اني كنت ملزما بالجلوس في الدكان ، من الظهيرة ، حتى المساء » .

عندما بلغ انطون تشيكوف السادسة عشرة ، هرب أبـــوه الـــى موسكو ، حيث كان ابناه ، الكسندر ونيكولاس ، ملتحقين بالجامعـــة ، وذلك خشية ان يعتقل ، بعد ان تراكمت عليه الديون . ترك انطون فـــي تاغانروغ ، لمتابعة دراسته ، واعالة نفسه ، ما وسعه ذلك ، بتعليم الطلبة المتخلفين . وعندما حصل ـ بعد ثلاث سنوات ـ علـــى شهادة الدراسة الثانوية ، ومنح خمسة وعشرين روبلا ، كبعثة دراسية ، انضم الـــى والديه ، في موسكو . وبما انه قرر ان يصبح طبيبا ، فقد التحق بكلية الطب . كان ـ عندئذ ـ فتى ، طويل القامـــة ، ينوف قليلا عن ستـــة اقدام ، ذا شعر بني خفيف ، وعينين بنيتين ، وشفتين ممتلئتين . وجـد عائلته مقيمة في احد الطوابق السفلى ، في بناية مزرية ، خصص معظمها لبيوت الدعارة . احضر انطون معه اثنين من زملائه الطلبة ، لكـي يقيما مع العائلة ، فدفعا اربعين روبلا ، في الشهر .. بينما دفـع نزيل ثالث عشرين روبلا .. وبذلك اصبح المبلغ ، باضافة الخمسة والعشرين روبلا الخاصة بتشيكوف ، خمسة وثمانين روبلا ، يدفع منه الايجار ، ويمـون منه تسعة اشخاص بالطعام . وسرعان ما انتقلوا الى شقة اوسع ، فـــي الشارع القذر نفسه .. أقام اثنان من النزلاء في حجرة ، بينما خصصت حجرة اصغر ، للنزيل الثالث .. وأقام انطون واثنان من اخوانه فـــي حجرة ثالثة ، بينما اقامت امه واخته ، في حجرة رابعة . اما الحجرة الخامسة ، التي اتخذ منها حجرة للطعام والجلوس ، فكانت حجرة نـوم اخويه ، الكسندر ونيكولاس . واخيرا ، حصل ابوهم ، بافيل ، على عمل، في احد المخازن ، حيث الزم بأن ينام هنالك .. وكان اجـــره الشهري خمسة وثلاثين روبلا . وهكذا ، تخلصوا ـ الى حين ـ من الرجل الاحمق، المستبد الذي حول حياتهم الى جحيم لا يطاق .

(١) ادموند دي غونكور ( ٨٢٢ ا ـ ١٨٩٧ ) ، وجوليوس دي غونكور ( ١٨٣٠ ـ ١٨٧٢ ) اخوان من النبلاء الفرنسيين .. عرف عنهما حبهمـا واخلاصهما النادر لبعضهما البعض .. كما عرف عنهما ، مـــن جهـة ، كرههما الشديد للموسيقى ، ومن جهة اخرى ، اهتمامهما البالغ بالادب ، حتى انهما تعودا ان يدعوا طائفة من كبار كتاب النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، من امثال رينـــان ، وسينت بيف ، ونوين ، وميتميليـه ، وفلوبير ، وتيرجينيف ، وغيرهم الـــى حفلات العشاء المشهورة باسم « عند ماغني » Chez Magny التي اقاماها مرتين في الشهر . وفي هذه الحفلات ، كان الكتاب ، بعد ان تنتشي الرؤوس ، ينطلقون على سجاياهم ، فكان الاخوان دي غونكور يسجلان كل شاردة وواردة تقـال . وعندما نشرت مذكراتهما ، التي كانت في الواقع اعمـــالا ادبية تناولت النقد الادبي ، والخلقي ، والفني ، احدثت هزة بين القراء ، ونورة بين الكتاب الذين ذكروا فيها . والجدير بالذكر ان امارة موناكو ، وبعد عدد من المحاكمات ، اصدرت ـ حتى الان ـ تسعة عشر مجلدا منها .. ويقال ان مجلدات أخرى منها ستظهر في المستقبل . ( المترجم )

✶ استقيت هذه المعلومات من مقالة ، بعنوان « ثلاثـــة صحفيين » لسومرست موم .

كانت لانطون موهبة ارتجال القصص الفكاهية التي ـ كما يقال لنا ـ أبقت اصدقاءه في نوبات من الضحك . ونظرا لحالة عائلته اليائسة ، فقد فكر في ان يجرب يده في كتابتها . كتب واحدة ، وارسلها الى مجلة اسبوعية ، في بطرسبورغ ، تدعى « الفراشة التنين » .. وفي عصر احد ايام كانون الثاني ( يناير ) ، اشترى ، في طريق عودته من كلية الطب ، نسخة منها ، ووجد ان قصته قبلت ، وانه سيتقاضى خمسة كوبيكات عن كل سطر . وبوسعي ان اذكر القارىء ان الروبل كان يساوي شلنين ، وانه كان يتألف من مائة كوبيك . وعليه ، فان المبلغ المعروض كان حوالي بنس للسطر الواحد . ومنذ ذلك الحين ، دأب تشيكوف على ارسال قصة « للفراشة التنين » ، كل اسبوع تقريبا .. سوى ان بضع قصص منها قبلت . ولكنه ، على كل حال ، أرسلها الى صحف موسكو ، التي لم تكن قادرة على ان تدفع الا النزر اليسير ، فقد كانت تعاني ازمات خانقة ، حتى ان المراسلين كانوا ـ بغية الحصول على اجورهم الزهيدة ـ ينتظرون في المكاتب ، الى ان يعود الصبية بالكوبيكات التي جمعوها ، من بيع الصحف ، في الشوارع . محرر من بطرسبورغ ، اسمه لايكن ، هو الذي اعطى تشيكوف تفويضا بأن يكتب قصة اسبوعية، من مائة سطر ، مقابل ثمانية كوبيكات لكل سطر . كانت صحيفة هزلية.. وعندما كان تشيكوف يرسل ، من حين الى اخر ، قصة رزينة ، كان « لايكن » يحتج بأن قراءه لا يريدون هذا النوع من القصص . ومع ان القصص التي كتبها لقيت اعجابا شديدا ، واكسبته شيئا من الشهرة ، الا ان الحدود التي فرضت عليه ، والمتعلقة بكل من طول ومضمون كتاباته ، ضايقته .. وهكذا ، ولكي يرضيه ، حصل لايكن ـ الذي كان ، على ما يبدو ، رجلا عاقلا ، وعطوفا ـ على عرض من صحيفة « بطرسبورغ غازيت » ، يخوله بكتابة قصة اسبوعية اطول ، وذات مضمون مختلف ، بالسعر نفسه ، الا وهو ثمانية كوبيكات للسطر الواحد . ومن عام ١٨٨٠، حتى عام ١٨٨٥ ، كتب تشيكوف ثلاثمائة قصة !

كانت من قصص البطون (١) .. ويقول لنا قاموس « اكسفورد » ان هذه الكلمة تطلق ، استحقارا ، على العمل الادبي ، او الفني الذي يتم تنفيذه بقصد الحصول على المعيشة .. انه اصطلاح يستحسن ان يسقط من مفردات الصحفيين الادباء .. يجب ان اقول ان الكاتب الشاب الذي يكتشف ان لديه حافزا خلاقا يدفعه للكتابة ( واما كيف سيملكه ، فذلك سر من الصعب ادراكه ، تماما كنشأة الجنس ) ، قد يحسب ان حافزه قد يجلب له الشهرة .. ولكنه بالتأكيد ، قلما ينتظر ان يجلب له المال .. وفي ذلك خير له ، لان هنالك احتمالا كبيرا بالا يجلب له ذلك ، في بدايته . ولكنه لا يستطيع ـ حينما يقرر ان يصبح كاتبا محترفا ، بقصد اكتساب قوته ـ الا يكترث بالنقود التي ستجلبها له موهبته . اما قراؤه ، فلا شأن لهم بالحافز الذي يدفعه للكتابة .

في الوقت الذي كان تشيكوف يكتب فيه هذا العدد المذهل من القصص ، كان يعمل ايضا ، في كلية الطب ، للحصول على الدبلوم . لم يكن بوسعه ان يكتب الا ليلا ، بعد ان يفرغ من عمل يومه المضني ، في المستشفى . كانت الظروف المحيطة بكتابته صعبة .. لقد تخلصوا من النزلاء ، وانتقلت عائلة تشيكوف الى شقة اصغر .. سوى ان « في الحجرة المجاورة » ، هكذا كتب الى لايكن ، « يبكي ابن قريب لي ، ( ابن اخيه الكسندر ) .. وفي حجرة اخرى ، يقرأ ابي لامي ، بصوت مرتفع ، احدى قصص ليسكور .. لقد قام احدهم بملء صندوقنا الموسيقي ، فانني اسمع « هيلين الجميلة » (١) . ويرقد في سريري قريب لي ، حل ضيفا علينا ، لا يفتأ يجيء الي ، كل دقيقة ، ويأخذ في الحديث عن الطب .. الطفل يصرخ !.. لقد قررت ، قبل قليل ، الا يكون لي اطفال .. أظن ان ليس للفرنسيين سوى قلة قليلة من الاطفال ، لانهم قوم

(١) الكلمة باللغة الانجليزية هي Potboilers ، وترجمتها بالشكل الذي اوردته مجرد اجتهاد . ( المترجم )

(١) اوبرا فكاهية للموسيقار جاك اوفنباخ ( المترجم )

انطون تشيكوف

مهتمون بالآداب ... » وبعد عام ، كتب ، في رسالة الى اخيه الصغير ، ايفان : « انني اكسب من المال اكثر من اي من قادتك العسكريين .. ولكني لا املك اية نقود .. لا احصل على غذاء مناسب .. ليست لي حجرة خاصة بي ، حيث استطيع ان أؤدي عملي .. وفي هذه اللحظة ، لا املك شروي نقير .. اني انتظر مطلع الشهر ، بفارغ الصبر ، عندما سأتسلم ستين روبلا من بطرسبورغ ، سأنفقها ، على الفور » .

أصيب تشيكوف ، عام ١٨٨٤ ، بنزيف دموي .. كان داء السل في العائلة .. فلم يستطع الا ان يدرك ما الذي يدل هذا عليه .. سوى انه أبى ان يعرض نفسه على اخصائي ، خشية ان تتحقق مخاوفه .. ولكي يطمئن امه القلقة ، اخبرها ان النزيف ينتج فقط عن تفجر الاوعية الدموية ، في الحلق ، وان لا علاقة له مطلقا بالسل . وفي أواخر ذلك العام ، اجتاز امتحاناته النهائية ، واصبح طبيبا مؤهلا . وبعد بضعة شهور ، جمع قدرا كافيا من المال ، لكي يذهب الى بطرسبورغ . انه لم يعلق على قصصه اية اهمية .. انها كتبت من اجل المال .. ولقد قال ان كتابة اية واحدة منها لم تأخذ منه ، اكثر من يوم واحد . فوجيء ، عند وصوله الى بطرسبورغ اذ اكتشف انه غدا مشهورا .. وجد الاشخاص الاذكياء في بطرسبورغ ، التي كانت ـ آنئذ ـ المركي الثقافي في روسيا ، في قصصه ، على صغرها ، عذوبة ، وحيوية ، ووجهة نظر اصيلة . احتفوا به .. لقد حمل على الاعتقاد بأنه ينظر اليه على انه واحد من اكبر الكتاب الموهوبين في عصره . عرض عليه المحررون ان يراسل صحفهم ، مقابل اسعار لم ينل مثلها من قبل .. وحثه احد كبار المحررين في روسيا ، ان يقلع عن كتابة القصص التي تعود ان يكتبها ، وان يشرع في كتابة قصص جادة الطابع .

تأثر تشيكوف بتلك الحفاوة ، الا انه لم يشأ قط ان يصبح كاتبا محترفا .. قال : « الطب زوجتي الشرعية .. اما الادب فعشيقتي فقط» .. وعندما عاد الى موسكو ، كان مزمعا ان يكسب قوت يومه من حرفته كطبيب . يجب الاعتراف بانه لم يبذل الا القليل من الجهد ، لكي ينشيء لنفسه عيادة ناجحة .. لقد جمع حوله طائفة من الاصدقاء ، الذين قاموا بارسال المرضى اليه .. سوى انهم قلما دفعوا له اجر اتعابه . كان مرحا ، جذابا .. وكان ، بضحكته الرنانة ، المعدية ركنا من اركان الاوساط البوهيمية التي تعود ان يتردد عليها . أحب حضور الحفلات واقامتها .. كان يشرب بحرية .. غير انه قلما كان يثمل ، اللهم الا في حفلات الزفاف ، وايام الاسم ( ترادف بالروسية ايام الميلاد ) ، والاحتفالات الدينية .. كانت النساء يجدنه جذابا ، فكان له عدد من العلاقات الغرامية . سوى انها كانت غير مهمة . وبمرور الزمن ، قام بزيارات عديدة الى بطرسبورغ ، وتجول هنا ، وهناك في روسيا .. وكان ، في كل ربيع ، يحمل عائلته كلها ـ تاركا خلفه مرضاه ليعتنوا بأنفسهم ـ الى الريف ، حيث كانوا يقيمون حتى فصل الخريف . كان المرضى ، بمجرد ان يعرفوا انه طبيب ، يتقاطرون اليه زرافات ووحدانا ، للاستشارة الطبية .. ولم يدفعوا له ، بالطبع ، اي شيء . ولكي

يكسب المال ، لم يجد بدا من ان يكتب القصص .. كانت مطردة النجاح .. وتقاضى عنها اسعارا حسنة .. سوى انه وجد ان من المستحيل عليه ان يعيش حسب امكانياته . كتب ، في احدى رسائله الى لايكن ، يقول : « تسألني عما اصنع بنقودي .. اني لا احيا حياة مترفة .. ولا اتجول بثياب كثياب المتأنق .. لست مديونا ، بل اني لست محتاجا لان احتفظ بعشيقة ( فانا انال الحب مجانا ) .. بيد اني ، مع كل ذلك ، لا املك من الثلاثمائة روبل التي تسلمتها منك ، ومن « سوفيرين » ، قبل عيد الفصل ، سوى اربعين روبلا ، علي أن ادفع منها ، غدا ، اربعين روبلا .. الله وحده يعلم اين تذهب نقودي . « وقد انتقل الى شقة جديدة ، حيث حصل ، اخيراً ، على حجرة خاصة به .. ولكنه اضطر ان يرجو لايكن ان يرسل اليه مقدما ، مبلغا من المال ، لكي يدفع الايجار .. وفي عام ١٨٨٦ ، اصيب بنزيف دموي اخر . ادرك ان لا بد له من ان يذهب الى منطقة القرم ، حيث كان المصابون بالسل يذهبون ـ في ذلك الوقت ـ سعيا وراء المناخ الدافيء ، مثلما كانوا يذهبون ، في اوروبا الغربية ، الى الريفييرا الفرنسية ، والبرتغال .. ثم يموتون كما يموت الذباب . ولكنه لم يكن يملك روبلا واحداً للسفر . وفي عام ١٨٨٩ ، توفي اخوه نيكولاس ، الذي كان رساما على شيء من الموهبة ، بداء السل .. كانت وفاته صدمة ، ونذيرا .. وما ان جاء عام ١٨٩٢ ، حتى بلغت صحته من السوء حدا خشي معه ان يمضي شتاء اخر في موسكو.. فاقترض مبلغا من المال ، اشترى به عقارا صغيرا ، قرب قرية تدعى « ماليخوفو » ، على بعد خمسين ميلا من موسكو .. وحمل ـ كالمعتاد ـ عائلته معه ، أباه الصعب ، وأمه ، واخته ، واخاه ميكائيل .. أحضر حمولة عربة من العقاقير الطبية ، فتحلق المرضى ، مثلما فعلوا ابدا ، حوله لاستشارته .. عالجهم ، ما وسعه ذلك .. ولم يتقاض منهم كوبيكا واحدا .

على هذا المنوال ، أمضى خمسة اعوام في ماليخوفو ، كانت ـ على العموم ـ اعواما سعيدة . لقد كتب عددا من اروع قصصه هنالك، وكوفيء عليها بسخاء ، حيث دفع له أربعون كوبيكا على السطر ، اي حوالي الشلن . شغل نفسه بالعلاقات المحلية ، فائمرت مساعيه بانشاء طريق جديدة ، وشيد المدارس للفلاحين على نفقته الخاصة . جاء اخوه الكسندر ، الذي عرف عنه بأنه سكير ، وزوجته ، وابناؤه لكي يقيموا معه . كذلك توافد الاصدقاء ، احيانا ، لزيارته ، فكانت زياراتهم تطول الى بضعة ايام . ومع انه شكا من انهم يتدخلون في عمله ، الا انه لم يستطع ان يحيا بدونهم . وبالرغم من مرضه ، بقي بشوشا ، دمث الاخلاق ، ودودا ، مرحا . تردد ، بين الحين والاخر ، على موسكو ، في نزهات قصيرة . وفي احدى هذه المناسبات ، عام ١٨٩٧ ، أصيب بنزيف دموي شديد ، نقل على اثره الى عيادة طبية ، حيث كان الموت منه قاب قوسين ، او ادنى ، لعدة أيام . لقد رفض دائما أن يصدق انه مصاب بداء السل . سوى أن الاطباء ، بعد ذلك ، اخبروه ان الجزء العلوي من الرئتين مصاب .. وانه ، اذا شاء ان يعيش ، يجب ان يغير اسلوبه ، في الحياة . عاد الى ماليخوفو .. الا انه ادرك أنه لن يتمكن من قضاء شتاء اخر هناك . سافر الى الخارج ، الى بياريتس ، ونيس .. واستقر به المقام ، اخيرا ، في يالطة ، في القرم . نصحه الاطباء بأن يقيم هناك اقامة دائمة .. فشيد لنفسه منزلا ، هناك ، بسلفة مالية من صديقه ، ورئيس تحريره ، سوفيرين .. كان كعادته ، يعاني معاعب مالية مريعة .

تسبب عجزه عن ممارسة مهنة الطب ، بصدمة قاسية له .. لست ادري اي نوع من الاطباء كان .. فبعد تخرجه ، لم يمارس التطبيب اكثر من ثلاثة شهور ، في احد المستشفيات . ويخيل الي ان معاملته لمرضاه كانت سريعة ، وعنيفة نوعا ما .. سوى انه كان انسانا ذا منطق ، وعاطفة .. ولربما كان من المقدر له أن يؤدي الى مرضاه ، من الخدمات، ما يؤديها امرؤ اوسع اطلاعا ، لو انه ترك الطبيعة تأخذ مجراها .. وهكذا ، فقد استفاد من الخبرات المتباينة التي حصل عليها . أن لدي اسبابا تدفعني الى الاعتقاد بأن التدريب الذي يحصل عليه طالب الطب،

ـ التتمة على الصفحة ٥٨ ـ

# أنا والصخرة والرحيل

على كتفيّ أحملها ،
كأن وجودها صخره
وأصعد عالمي المجهول ، أنظر ما وراء الغيبِ
من خلف الزجاج ، أراه مطويا .
وأسألها عن الدربِ
فيجهش صمتها الاعمى .
خواء كل ما ألقاه ، وهي تسد لي دربي
حملتك في دمي ثلجا
وفي عيني ليلا مطفأ الجذوه
حملتك ، آه يا قدري ..
أظل ممزق الكتفين ، أرحل عمري المنذور ،
في بحر من الرغوه
فقاعات تنش كأنها بركان ، لا دفء ولا نار
ويرهقني الرحيل ، أظل منشورا على الافق
قراري أخرس الكلمات ، ينشج في عروقي الموت
والشهوه

فصبي الموت ، يا صخره
على كتفيّ ، في زنديّ ، صبي الموت واحترقي
يظل الوهج في عينيّ ، من خلف الزجاج، يشع بالالقِ

***

شموعي أطفأتها الريح ـ
ـ هل من يشعل الشمعه ؟
تبلد في عروقي الدفء، أمطرت الليالي السود جرذانا
عناكب تثقل الطرقات ، يا ويلي ..
كأن الارض كهف موغل العتمه
وأخنق في فمي الكلمات ، تلمع من عيوني دمعةدمعة .
على كتفي أحمل ألف تاريخ وأصعد قمة القمه ؟

***

سدى . لن تعثر الخطوه
سدى . لن تطفأ الجذوه
هنا ، في رحم الغيب ، تهل منابع القوه
فصبي الموت واحترقي
يظل الوهج في عينيّ ، من خلف الزجاج ، يشع
بالالق .

عمان

راضي صدوق

## القصة القصيرة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤١ ـ

مفيد للكاتب .. انه يكتسب معرفة بطبيعة الانسان ، وهي مـا لا يقدر بثمن .. انه يراها في احسن ، واسوأ حالاتها .. فاذا ما مرض الناس ، او خافوا ، اسقطوا عنهم القناع الذي يتقنعون به ، وهـم اصحاء .. ولكن الطبيب يراهم على حقيقتهم ، انانيين ، قساة ، جشعين ، جبناء .. سوى انهم ايضا ، شجعان كرماء ، سمحاء ، عطوفون .. انه صابر علـى ضعفهم ، مرتعب من فضائلهم .

تحسنت صحة تشيكوف في يالطة ، على الرغم مما الم به هناك من ضجر . ان الفرصة لم تتح لي ، حتى الان ، لكي اقول ان تشيكوف كتب، في هذه الاونة ، الى جانب العدد الغزير مـن قصصه ، تمثيليتين ، او ثلاث تمثيليات ، لم تلق نجاحا كبيرا .. وتعرف ، بواسطتها ، على ممثلة شابة اسمها « اولغا كنيبر » . اغرم بها ، وتزوجها عام ١٩٠١ ، علـى الرغم من استياء عائلته الشديد ، والتي لم ينقطع عن اعالتها .. واتفق على ان تستانف التمثيل .. وهكذا ، لم يجتمعا الا حينما كان يذهب الى موسكو لرؤيتها ، او عندما كانت ، بقصد الاستراحة ـ كما يقولون فـي الاوساط المسرحية ـ تذهب الى يالطة . لقد حوفظ على رسائله اليها ، وهي رسائل حنونة ، ومؤثرة . لم يدم التحسن الذي طـرأ على صحته طويلا ، ففدا مريضا جدا . سعل كثيرا ، ولم يستطع ان ينام .. ولشد ما كان حزنه عميقا ، عندما اجريت لاولغا كنيبر عملية اجهاض .. لقـد حثت تشيكوف طويلا ، على ان يكتب رواية فكاهية ، خفيفة .. وهي مـا كان يريده الجمهور . وعلى الفور ، ولكي يرضيها ، فيما اظن ، ابتدأ في الكتابة . كانت ستدعى « بستان الكرز » .. ووعد اولغا بأن يكتب لهـا دورا حسنا . لقد كتب الى صديق له : « انني اكتب اربعة سطور ، في اليوم .. ولكن ، وحتى ذلك يسبب لي آلاما لا تطـاق » . انتهي مـن كتابتها ، واخرجت في موسكو ، في اوائل عـام ١٩٠٤ . وفي شهـر حزيران ( يونيو ) التالي ، ذهب ـ بناء على نصيحة طبيبه ـ الى ينابيع المياه المعدنية ، في بادن فاينر ، بالمانيا . كتب روسي شاب ، من اهـل القلم ، عرضا لمقابلة له مع تشيكوف ، عشية رحيله .. انني اقتبس السطور التالية ، من « حياة ماغارشاك » :

« جلس رجل نحيف جدا ، وصغير كما يبدو ، بمنكبيه الضيقين ، ووجهه الضيق ، الخالي من الدم ، على اريكة ، تسنده الوسائد ، وقـد ارتدى معطفا ، او رداء ثقيـلا ، وغطت سجادة ساقيه هكذا اصبـح تشيكوف ، منهوك القوى ، لا يمكن التعرف عليه .. انني ما كنت لاصدق ان انسانا ما يمكن ان يتغير الى هذا الحد .

« مد الي يده الضعيفة ، البيضاء كالشمع ، التي راعني ان انظر اليها .. وحملق في بعينيه الرقيقتين .. الا انهما لم تعودا تبتسمان .

« قال : اني راحل غدا .. سأبتعد لكي أموت .

« لقد استعمل كلمة اخرى .. كلمة اشد قسوة من « لكي اموت » ، والتي لا اريد ان اكررها الان .

« كرر مؤكدا : اني سأبتعد لكي أموت .. قل لاصدقائك وداعـا ، نيابة عني ... قل لهم اني ما زال اذكرهم ، واني مولع جدا ببعضهم.. احمل لهم تمنياتي بالنجاح ، والسعادة .. اننا لن نلتقي ابدا » .

في البداية ، تحسنت صحته ، في بادن فاينر ، تحسنا كبيرا ، حتى انه اخذ يضع الخطط للسفر الى ايطاليا . وذات مساء ، حينما ذهب الى الفراش ، بعد أن امضت اولغا اليوم بكامله معـه ، اصر على ان تذهب لكي تتمشى في المتنزه . وعندما عادت ، سألها ان تنزل لتتناول عشاءها .. سوى انها اخبرته ان الوقت لم يحن بعد . ولكـي يمضيا الوقت ، راح يقص عليها قصة منتجع ، يقصده الناس فـي عطلاتهم ، زاخر بالزوار المتانقين ، واصحاب البنـوك البـدن ، والامريكيين ، والبريطانيين الاصحاء . « وذات مساء ، عادوا جميعهم الـى فندقهم ، ليجدوا ان الطباخ هرب ، وانه لـم يكن هنالك مـن عشاء ، فـي انتظارهم » .. ومضى تشيكوف يصف كيف تلقى كل واحد ، مـن هؤلاء المترفين ، الصدمة . قصها بتندر فكه ، حتـى ان اولغا كنيبر ضحكت ملء شدقيها . ورجعت اليه بعد العشاء .. كان تشيكوف مستريحـا بهدوء .. وفجاة ، اخذت صحته تتدهور ، فاستدعي الطبيب .. لقـد جهد جهده ، الا ان ذلك لم يجد نفعا .. وتوفـي تشيكوف .. وكانت كلماته الاخيرة بالالمانية ، « اني اموت » .. كان فـي الرابعة والاربعين مـن عمره .

كتب الكسندر كوبرين في مذكراته عن تشيكوف « اظن انه لم يفتح ، او يعط قلبه ، بشكل كامل ، لاحد .. ولكنه نظر الى كل امرىء برقة ، وبلا مبالاة بالنسبة للصداقة .. ولكن ، وفـي الوقت نفسه ، باهتمـام بالغ ، ولعله فعل ، دون ان يعي ذلك » . ان هـذا القول يميط اللثام ، الى ابعد الحدود .. انه يعطينا فكرة ، عن تشيكوف ، اشمل واعم مـن اي من الحقائق التي اتيحت لي الفرصة لروايتها ، فـي هـذا العرض القصير لحياته

### ( ٥ )

كانت معظم قصص تشيكوف الاولى فكاهية . لقد كتبها بمنتهـى السهولة .. قال انه يكتب مثلما يفرد الطائر .. ولم يعرها ادنى اهمية. لم يحمل تشيكوف نفسه محمل الجد الا بعد زيارته الاولى لبطرسبورغ، حينما اكتشف انه قبل ككاتب موهوب ، ينتظره مستقبل رحب . عندها ، عزم على ان يحذق فنه .. وذات يوم ، وجـده صديق ينسخ احـدى قصص تولستوي . ولما سأله عما يفعل ، أجاب : « اعيـد كتابتها » . صعق صديقه اذ رآه يتصرف ، في عمل الاستاذ ، بمثل هذه الحرية .. بينما اوضح تشيكوف انه كان يفعل ذلك بقصد التمرين .. تقد حمـل فكرة ( وكل ما ادريه انها فكرة صائبة ) مفادها انه ، بعمله هذا ، يستطيع ان يتعلم أساليب الكتاب الذين اعجب بهم ، ومن ثـم يستنبط اسلوبه الخاص . واضح أن عمله لم يذهب سدى .. لقد تعلم كيف يكتب قصصه بمهارة تامة : فان انسجام السبك في قصة « الفلاحين » ـ علـى سبيل المثال ـ لا يقل بحال عن مستوى سبك « مدام بوفاري » لفلوبير . لقـد عود تشيكوف نفسه على ان يكتب ببساطة ، ووضوح ، وايجاز . ويقـال لنا انه أنجز اسلوبا رائع الجمال .. ان علينا ـ نحـن الذين نقـرأه مترجما ـ ان نتقبل ذلك بثقة ، لان النكهة ، والاحساس ، وعذوبة كلمات الكاتب تضيع حتى في ادق الترجمات .

كان تشيكوف شديد الاهتمـام « بتكنيك » القصة ، وابدى فيـه الكثير من الاراء الممتعة ، غير المألوفة .. طالب بالا تتضمن القصة اية نافلة . كتب يقول : « يجب ان يحذف منها كل ما ليس له صلة بها .. فاذا قلت ، في الفصل الاول ، ان بندقية علقت علـى الحائط ، فيجب التأكد من ان النار تطلق منها في الفصل الثاني ، او الثالث » . يبدو ان هذا معقول .. ومعقولة ايضا دعواه بأن يكون وصف الطبيعة مقتضبا، وفي صلب الموضوع . لقد استطاع هو ان يعطـي القارىء ، بكلمة او اثنتين ، انطباعا واضحا عن ليلة صيف ، حينما غردت البلابل اكبادها .. او عن الرونق البارد للاصقاع المترامية الاطراف ، تحت ثلوج الشتاء . كانت تلك موهبة فذة . ان شكي لكبير في انتقاده المرير لاعطاء الصفـات الانسانية للاشياء غير الانسانية . كتب في احـدى رسائله : « يضحك البحر .. لا شك ان سعادتك بذلك غامرة .. سوى ان ذلـك رخيص ، وسخيف .. فالبحر لا يضحك ، او يبكي .. انه يزأر ، يلمع ، يتلألأ .. انظر كيف يقولها تولستوي : « تشرق الشمس وتغرب .. وتغرد الطيور» .. فليس هنالك من يضحك ، او يبكـي .. ان الشيء الرئيسي هو : « البساطة » . انه لقول حق .. سوى أننا ـ بعد كـل شيء ـ دأبنا ، منذ الازل ، على ان نشبه الطبيعة بالانسان .. ويتوفر لنـا ذلك دونمـا تكلف ، او تصنع .. وان تجنبه لن يتم الا بقسط مـن العناية . ان تشيكوف نفسه لم يلتزم دائما بهذا .. ففي قصته « المبارزة » ، يخبرنا

ان « نجما بزغ ، وغمز ، بخفر ـ بعينه الوحيدة » . ليس لي اي اعتراض على هذا ، بل انه ـ في الواقع ـ يعجبني . لقد قال لاخيه الكسندر ـ وهو ايضا كاتب قصص قصيرة ضعيف الموهبة ـ ان على الكاتب الا يصف مشاعر لم يشعر بها بنفسه . ذلك قول صعب .. فليس ضروريا ـ بالتأكيد ـ ان ترتكب جريمة قتل ، لكي تصف باقناع تام ، الاحاسيس التي يحسها القاتل ، عندما يرتكب جريمته .. ان لدى الكاتب ، على كل حال ، خياله .. فاذا كان كاتبا كفؤا ، فانه يملك القدرة على ان يتخيل نفسه في مكان الشخصيات التي اخترعها . بيد ان اعنف ما طالب تشيكوف به هو ان يحذف الكاتب بداية ونهاية قصصه .. كان هو نفسه يفعل ذلك ، وبشكل صارم ، حتى ان اصدقاءه كانوا يقولون ان مخطوطاته يجب ان تختطف منه ، قبل ان تتاح له فرصة تشويهها ، « والا فانه سينقص قصصه الى هذا فقط ، وهو انهما كانا فتيين ، واحبا بعضهما بعضا ، وتزوجا ، وكانا غير سعيدين » . وعندما قيل هذا لتشيكوف ، رد قائلا : « خذ في اعتبارك ان هذا ما يحدث ، في الواقع » .

اتخذ تشيكوف من موبوسيه نموذجا له . اني ما كنت لاصدق هذا ، لو لم يقله لنا بنفسه ، ذلك ان اسلوبيهما ، واهدافهما يبدو لي مختلفة تماما ، فقد كان موبوسيه يطمح ـ بصفة عامة ـ الى ان يجعل قصصه درامية . ولكي يفعل هذا ، كان ـ كما قلت من قبل ـ مستعدا ، اذا قضت الضرورة ذلك ، ان يضحي بالمعقول . واني لاميل الى الاعتقاد بان تشيكوف تجنب كل ما هو درامي . لقد عالج ناسا عاديين ، يحيون حياة عادية . كتب في احدى رسائله : « لا يذهب الناس الى القطب الشمالي، لكي يسقطوا عن الجبال الثلجية .. انهم يذهبون الى المكاتب .. يتشاجرون مع زوجاتهم .. يحتسون حساء الملفوف » . بوسع المرء ان يعترض بحق ، على هذا بأن الناس يذهبون ـ بالفعل ـ الى القطب الشمالي .. وانهم ، وان لم يسقطوا عن الجبال الثلجية ، يتعرضون لمغامرات لا تقل خطورة عن ذلك .. وانه لا يوجد ادنى سبب يحول دون ان يكتب كاتب قصة ممتازة عنهم . من الواضح انه لا يكفي ان يذهب الناس الى مكاتبهم ، وان يحتسوا حساء الملفوف .. واني لا اعتقد ان تشيكوف حسب ابدا ، أن الامر كان على النحو التالي : لكي تكون هنالك قصة ، فان عليهم ـ بالتأكيد ـ ان يختلسوا مبالغ المصروفات النثرية المودعة في مكاتبهم ، أو ان يقبلوا الرشاوى ، او ان يضربوا زوجاتهم او يخدعوهن ، او ان تكون لاحتسائهم حساء الملفوف اية اهمية . انها تصبح ـ عندئذ ـ نموذجا اما للحياة المنزلية السعيدة ، او لعذاب الحياة التعيسة .

هيأت حرفة تشيكوف الطبية له ـ مع انها كانت متقطعة ـ الاتصال باخلاط شتى من الناس ، من فلاحين ، وتجار ، وعمال المصانع ، واصحاب المصانع ، وصغار الموظفين الذين لعبوا دورا مدمرا في حياة الشعب ، وملاك الاراضي الذين حلت بهم الفاقة اثر تحرير عبيد الارض . ولا يبدو انه اتصل قط بالطبقة الارستقراطية . اني اعرف قصة واحدة ـ القصة المريرة المسماة « الاميرة » ـ اهتم فيها بتلك الطبقة . لقد كتب بصراحة جريئة عن فشل مالكي الاراضي الذين تركوا ممتلكاتهم نهب الدمار .. وعن الزمرة البائسة من عمال المصانع الذين عاشوا على شفير المجاعة ، وعملوا اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، حتى يتسنى لاصحاب الاعمال ان يضيفوا ممتلكات الى اخرى .. وعن حقارة، وجشع طبقة التجار .. وعن قذارة ، وسكر ، وقسوة ، وجهل ، وكسل الفلاحين المبخوسي الاجور ، الجائعين ابدا ، وعن الزرائب الخبيثة الرائحة ، الموبوءة بالحشرات ، والهوام ، والفئران التي عاشوا فيها .

كان بوسع تشيكوف ان يعطي الاشياء التي يصفها واقعية نادرة .. انك تقبل ما يقال لك ، مثلما تقبل وصف حادث نقله مخبر موثوق به.. سوى ان تشيكوف لم يكن ، في الواقع ، مخبرا فقط .. لقد لاحظ ، واختار ، وقدر ، ثم وصل .. انه كما قال كوتليانسكي : « في واقعيته الفذة ، وترفعه عن الاحزان والمسرات الشخصية ، رأى تشيكوف ، وعرف كل شيء .. كان قادرا على ان يكون رقيقا ، كريما دون ان يحب .. وحنونا ، عاطفيا دونما تعلق .. ومحسنا دون ان يتوقع الشكر والعرفان » .

ولكن سلبية تشيكوف هذه أثارت غضب عدد كبير من زملائه الكتاب، فهوجم بوحشية . كانت التهمة الموجهة اليه هي اللامبالاة بأحداث ، وظروف زمنه الاجتماعية التي كانت الطبقة المثقفة ترى ان واجب الكاتب الروسي يحتم عليه ان يعالجها . وكان رد تشيكوف ان مهمة الكاتب تنحصر في رواية الحقائق ، وان عليه ان يترك للقراء ان يقرروا ما الذي يجب عمله حيالها . لقد اصر على ان الفنان لا يجب ان يدعى لكي يحل المشاكل الضيقة الاختصاص . قال : عندنا اخصائيون لمعالجة المسائل الخاصة .. ان الحكم على المجتمع ، ومصير الرأسمالية ، ورذيلة السكر تقع في نطاق اختصاصهم ... » يبدو ان ذلك معقول .. ولكن ، وبما ان وجهة النظر هذه تبحث ـ في هذه الاونة ـ على نطاق واسع ، في عالم الفكر والقلم ، فاني سأتجرأ بأن اقتبس بعض الملاحظات التي اوردتها ، منذ عدة سنين ، في محاضرة القيتها في رابطة الكتاب الوطني. قرأت ، ذات يوم ـ كما كانت عادتي ـ الصفحة الادبية التي تخصصها احدى مجلاتنا الاسبوعية لدراسة الاتجاهات الادبية المعاصرة . وفي هذه المناسبة بالذات ، افتتح الناقد تقريظه لعمل قصصي نشر مؤخرا ، بالكلمات التالية : « السيد فلان الفلاني ليس قصصيا فحسب ... » التصقت كلمة « فحسب » في حلقي .. وفي ذلك اليوم ـ مثل باولو وفرانسيسكا ، في مناسبة اخرى ـ لم استرسل في القراءة . هذا الناقد نفسه قصصي معروف .. ومع ان الحظ لم يسعدني بان اقرأ اي عمل من اعماله ، الا ان الشك لا يخامرني مطلقا ، بانها اعمال جديرة بالاعجاب . سوى انه لا يسعني الا ان استخلص من عبارته ان القصصي، في رأيه ، يجب ان يكون ، بطريقة ما ، أكثر من قصصي . من الواضح انه ـ مع اني ابدي هذا الرأي بشيء من الشك ـ يقبل الرأي السائد عند الكثيرين من الكتاب المعاصرين ، والقائل انه من السخف ـ نظرا لحالة العالم الذي نعيش فيه المضطربة ـ ان يقوم كاتب بكتابة قصص تستهدف فقط مساعدة القارىء على ان يمضي بضع ساعات ممتعة . وكما نعلم ، فان اعمالا مثل هذه تهمل بازدراء ، وتوصف بانها تهرب .. وتلك كلمة مثل « البطون » ، يجب ان تسقط من مفردات النقاد .. فالفن كله تهرب ، سواء أكان سيمفونيات موزارت ، او مناظر كونستابل الطبيعية . فلم ، اذن ، نقرأ قصائد شكسبير، او قصائد كيتس الغنائية، ان لم يكن من اجل المتعة التي توفرها لنا ؟.. ولم نطلب من الروائي اكثر مما نطلب من الشاعر ، او الموسيقار ، او الرسام ؟.. لا يوجد ، في الواقع ، شيء اسمه قصة « مجردة » . فحينما يكتب الكاتب قصة ـ دون ان تكون نواياه ، احيانا ، اكثر من ان يجعلها مقروءة ـ يقدم ، شاء ذلك ام ابى ، نقدا للحياة . فعندما كتب روديارد كيبلنغ ، في كتابه « حكايات بسيطة من التلال » ، عن المدنيين الهنود ، ولاعبي البولو من الضباط وزوجاتهم ، كتب باعجاب ساذج لصحفي شاب ، وضيع النسب ، مبهور بما حسب انه ابهة . شيء مذهل الا يكون احد قد رآى ـ آنئذ ـ في تلك القصص ، تهمة دامغة للقوة الغاشمة . انك لا تستطيع ان تقرأها الان ، دون ان تتأكد من حتمية اجبار الانجليز ـ آن عاجلا او آجلا ـ على تسليم سلطانهم على الهند . كذلك كان الحال مع تشيكوف .. فانك لا تستطيع ان تقرأ قصصه ـ على ما ارتضاه لنفسه من حياد ، ورغبة في وصف الحياة وصفا امينا ـ دون ان تحمل على الاعتقاد بأن القسوة ، والجهل اللذين كتب عنهما ، والفساد ، وفقر البائسين المدفع، وقلة اكتراث الاغنياء لا بد وان تسفر عن ثورة دموية .

اني اعتقد ان معظم الناس يقرأون الاعمال القصصية لانهم لا يجدون شيئا اخر لكي يعملوه .. انهم يقرأون من اجل المتعة ، وذلك ما يجب ان يفعلوه . سوى ان اخلاط الناس يريدون ان يحصلوا ـ من قراءتهم ـ على مختلف المتع ، ومن بينها متعة الاعتراف . ان القراء الذين عاصروا « بارتشستر كرونيكلز » لتيريلوب ، قرأوها بلذة فائقة ، لانها صورت

الحياة التي عاشوها هم انفسهم . كان معظم قرائه من اثرياء الطبقة الوسطى .. وقد شعروا بالفة في ذلك الوسط الذي عالجه .. احسوا بنفس جذوة الرضى عن النفس التي احسوا بها ، عندما قال لهم السيد براون العزيز بان « الاله في سمائه ـ وان العالم على ما يرام » .. لقد اكسب الزمن هذه القصص جاذبية خاصة .. اننا نجدها مسلية،ومؤثرة، نوعا ما ، ( يا لروعة العيش في عالم حياة الموسرين فيه سهلة ، وكل شيء يأتي حسنا في النهاية ! ) .. ونجد فيها سحر صور منتصف القرن التاسع عشر المسلية ، برجالها الملتحين ، في معاطفهم السوداء المذيلة ، وقبعاتهم العالية ، ونسائهم الجميلات ، في قبعاتهن الظليلة ، وملابسهن الفضفاضة . اما القراء الاخرون فيطلبون في قصصهم الغرابة ، والجدة . لقد وجدت القصة الغريبة ـ دائما ـ عشاقا لها ، ذلك لان معظم الناس يحيون حياة رتيبة جداً .. وان في انهماكهم ـ للحظة ـ في عالم تحف به الاخطار ، والمغامرات المهلكة خلاص لهم من سام الحياة . اني اشك في ان يكون قراء قصص تشيكوف الروس قد وجدوا فيها متعة مختلفة عما وجد قراؤها في العالم الغربي ، ذلك انهم عرفوا جيدا حالة الناس الذين وصفهم وصفا رائعا . اما القراء الانجليز فقد وجدوا في قصصه شيئا جديدا ، وغريبا ، ومحزنا ، ومخيفا،احيانا كثيرة .. سوى انه قدم بصدق مؤثر ، خلاب ، بل وورمنطيقي .

لا يستطيع الا الشخص الساذج جدا، ان يفترض ان العمل القصصي يمكن ان يزودنا بمعلومات موثوقة عن المواضيع التي يهمنا ـ من اجل ان نتنهج مسلكا في حياتنا ـ ان نعرفها .. فليس القصصي ، بحكم طبيعة مواهبه الخلاقة ، كفؤا لان يعالج مثل هذه الامور .. انه لا يجب ان يعلل ويجادل بل ان يحس ، ويتصور ، ويستنبط .. انه منحاز . فالمواضيع التي يختارها الكاتب ، والشخصيات التي يخلقها ، وتصرفه نحوها ، كلها مشروطة بتحيزه .. فان ما يكتبه تصوير لشخصيته ، وعرض لغرائزه ، وعواطفه ، ووجدانه ، وتجربته .. انه يرجم بالغيب ، لا يدري ما الذي يريده ، حينا ، ويعلمه جيدا ، حينا اخر .. ومن ثم يستغل مهارته ليمنع القارىء من ضبطه . لقد اصر هنري جيمس على ان الكاتب يجب ان يكتب باسلوب درامي . ذلك قول ـ مع انه قد لا يكون واضحا ـ يقصد به أن عليه ان يرتب حقائقه بحيث يستطيع ان يستولي على انتباه قارئه . وهذا ـ كما يعرف كل واحد ـ ما فعله هنري جيمس باستمرار . ولكن هذا بالطبع ، ليس اسلوبا يكتب به عمل علمي ، او معلومات قيمة . فاذا كان القراء مهتمين بمشكلات العصر الملحة ، فمن الخير لهم أن يقرأوا ـ مثلما نصحهم تشيكوف ـ الاعمال التي تعالجها بشكل محدد ، لا الروايات ، أو القصص القصيرة..فليس هدف القصصي ان يعلم ، بل ان يسعد .

يحيا الكتاب حياة مجهولة .. انهم لا يدعون الى « مأدبة رئيس البلدية » .. وليس لهم شرف كسر زجاجة شمبانيا على هيكل سفينة ستمخر ـ في رحلتها الاولى ـ عباب المحيط .. ان الجماهير لا تتحلق ـ مثلما تفعل مع نجوم السينما ـ لمشاهدتهم وهم يغادرون فنادقهم ، لكي يقفزوا في سيارة رولزرويس .. انهم لا يدعون لكي يفتتحوا الاسواق الخيرية لمساعدة النساء المنكوبات ، او ليقدموا ، بين هتاف الجماهير، الكاس الفضية للفائز بمباراة التنس الفردية ، في ومبلدون . سوى ان لهم ما يعوضهم عن ذلك .. فمنذ عهود ما قبل التاريخ ، قام رجال ذوو مواهب خلاقة ، بتخفيف وطأة الحياة الكئيبة ، بواسطة الانتاج الفني . ان كل واحد يستطيع ان يرى بأم عينيه ـ اذا ما ذهب الى كريت ـ كيف ان القوارير ، والاقداح ، والجرار زينت بالرسومات ، لا لانها جعلتها اكثر فائدة ، بل لانها جعلتها اكثر جاذبية للعين .. وعلى مر العصور ، وجد الفنانون الرضى التام ، في انتاج الاعمال الفنية . فاذا ما استطاع الكاتب القصصي ان يفعل ذلك ، فانه يكون قد ادى كل ما يطلبه عاقل منه ، ذلك ان استخدام القصة كمنبر او منصة للخطابة ، والوعظ عمل كريه .

ـ ٦ ـ

اظن انه من الظلم ان تختتم هذه المقالة المفككة ، دون ان نؤخذ بعين الاعتبار كاتبة نالت قصصها ـ في الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين ـ اعجابا شديدا . انها كاترين مانسفيلد . فاذا ما اختلف اسلوب سبك القصة الانجليزية القصيرة ، عند كتابنا المعاصرين ، عن اسلوب كبار كتاب القرن التاسع عشر ، ففي رأيي ، ان الفضل في ذلك ، يرجع ـ الى حد ما ـ الى نفوذها . ليس هذا بالمجال الذي نستعرض فيه حياة الانسة مانسفيلد . ولكن ، ومذ ان معظم قصصها شخصية الى ابعد الحدود ، فاني سأقدم عرضا مقتضبا لحياتها . ولدت في نيوزيلندا ، عام ١٨٨٨ . ومنذ حداثة سنها ، كتبت عددا من المقطوعات الصغيرة التي نمت عن موهبة مبكرة . تمنت ان تصبح كاتبة . وجدت الحياة ، في نيوزيلندا ، مملة ، وضيقة ، فالحت على ابيها بأن يتركها تعود الى انجلترا ، حيث كانت اختها ـ لمدة عامين ـ في احدى المدارس . صدم ابواها المحترمان ، حينما اكتشفا علاقة غرامية قصيرة لها ، مع شاب التقت به ، في حفلة راقصة ، الامر الذي جعلهما ـ على ما يبدو ـ يسمحان لها بالعودة . خصص لها ابوها مئة جنيه في السنة .. وكان هذا المبلغ كافيا ـ انذاك ـ لفتاة أن تعيش به باقتصاد. جددت ، في لندن ، اتصالها ببعض الاصدقاء النيوزيلانديين ، وكان احدهم ارنولد تروول ، الذي غدا عازفا مشهورا .. كان ، في نيوزيلندا، قد شغفها حبا .. سوى انها ، في لندن ، نقلت عواطفها الى اخيه الاصغر ، الذي كان عازفا للكمان . اصبحا عاشقين . كانت اقامتها في شبه منزل للنساء العازبات ، تكلفها خمسة وعشرين شلنا في الاسبوع. وبذلك ، لم يبق معها غير خمسة عشر شلنا للابسها ، وتسليتها .ساءها ان تعيش في هذه الظروف الصعبة . وعندما خطبها مدرس غناء، اسمه جورج باودين ، وافقت .. تزوجت في ثوب اسود ، ومعها صديقة لها


## مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق . ل

- المثقفون ـ رواية جزآن
  ترجمة جورج طرابيشي ١٤٠٠
- انا وسارتر والحياة
  ترجمة عايدة مطرجي ادريس ٤٠٠
- مغامرة الانسان
  ترجمة جورج طرابيشي ١٥٠
- الوجودية وحكمة الشعوب
  ترجمة جورج طرابيشي ١٧٥
- نحو اخلاق وجودية
  ترجمة جورج طرابيشي ٢٢٥
- بريجيت باردو وآفة لوليتا ١٥٠
- قوة الاشياء ـ جزآن
  ترجمة عايدة مطرجي ادريس ١١٠٠

منشورات دار الاداب

كاترين مانسفيلد

كانت شاهدة زواجها الوحيدة. ذهبا الى فندق لقضاء ليلتهما. رفضت ان تسمح له بما اعتبره حقا زوجيا له .. وتركته في اليوم التالي . كتبت ـ فيما بعد ـ قصة مقذعة عنه ، بعنوان « يوم السيد ريجينالد بيكوك » . لحقت بعشيقها الذي كان يعزف الكمان في ليفربول ، في فرقة موسيقية تابعة لفرقة اوبرا فكاهية ، متجولة . ويقال انها عملت ، لفترة قصيرة ، عضوة في جوقتها . كانت حبلى .. بيد ان احدا لا يعرف ما اذا كانت على علم بذلك قبل زواجها ، او بعده بقليل . ارسلت كاثرين برقية الى ابويها في نيوزيلندا ، تزف اليهم فيها نبأ اقتراب زواجها ، واخرى تخبرهم فيها انها هجرت زوجها . جاءت امها الى انجلترا لكي ترى الوضع بنفسها .. ولا بد انها كانت صدمة قاسية لها ان تجد ابنتها فيما اصطلحوا على تسميته ، في عهد الملكة فيكتوريا ، « بالوضع المسلي » . وضعت الترتيبات لسفرها الى فيرشهوفن ، في بافاريا ، الى ان تضع مولودها . قرأت ـ هنالك ـ قصص تشيكوف ، وكانت ـ فيما اظن ـ مترجمة الى الالمانية .. وكتبت القصص التي نشرت ، فيما بعد ، في كتاب بعنوان « في نزل الماني » . أدخلت المستشفى ، اثر حادث ، وولد الجنين ميتا .. عادت الى انجلترا بعد ان شفيت .

نشرت قصصها الاولى في « نيو آيج » ، واكسبتها شيئا من الشهرة . تعرفت على عدد من زملائها الكتاب . وفي عام ١٩١١ ، التقت بميدلتون موري .. اسس موري ، وهو ما يزال طالبا بعد ، مجلة سماها « ريدم » .. قبل قصة ، كان قد طلبها منها ، وكانت هذه بعنوان « فتاة الحانوت » . نشأ ميدلتون موري في مجتمع الطبقة المتوسطة الفقير . ولكن اتحاد ذكائه مع اجتهاده أهلاه لان ينتقل من مدرسة داخلية ، الى مدرسة ثانوية .. ومن هناك ، ببعثة ، الى مستشفى المسيح .. واخيرا ، ببعثة اخرى ، الى اكسفورد . كان له سحره ، وجماله .. كان رائع الجمال ، حقا ـ استنادا الى ما قاله فرانسيس كاركو ، وهو رجل فرنسي من ارباب الاقلام ، تعرف عليه في احدى زياراته لباريس ـ حتى ان عاهرات مونتمارتر تنافسن فيما بينهن ، على من ستأخذه الى فراشها مجانا . احب موري كاترين ، وجعله هذا يقدم على اتخاذ الخطوة التي فكر فيها طويلا ، وهي ان ينقطع عن الدراسة في اكسفورد ـ دون ان يكون اول الخريجين ، مثلما كان ينتظر منه ، ما دام انه لم يكن صالحا لاي شيء سوى اجتياز الامتحانات ـ لكي يحترف الكتابة .. لقد صدمته اكسفورد . وشعر انها اعطته كل ما كان ينتظره منها . قدمه استاذه ، فوكس ، الى سبندر ، محرر « ويست منستر غازيت » الذي وافق على ان يجربه .. كان يبحث ، في لندن ، عن مكان يعيش فيه . وبينما كان يتناول عشاءه ـ ذات يوم ـ بصحبة كاترين ، عرضت عليه حجرة في الشقة التي كانت تستأجرها ، مقابل ايجار اسبوعي قدره سبعة شلنات ونصف الشلن . انتقل اليها . وبما انهما كانا مشغولين طيلة يومهما ، هي بقصصها ، وهو بعمله في « ويست منستر غازيت » ، فانهما لم يلتقيا الا في المساء ، حيث كانا ـ فيما اظن ـ يحدثان أحدهما الاخر ، عن نفسيهما ، مثلما يفعل الصغار السن ، حتى الثانية صباحا . وفي امسية مثل هذه ، سألته ، بعد فترة من الصمت : « لم لا تتخذني عشيقة لك ؟ » . اجاب : « اوه ، لا .. ذلك كفيل بأن يفسد كل شيء .. أولا تظنين ذلك ؟ » .. قالت : « بلى » . فوجيء ـ فيما بعد ـ عندما علم أن رده على اقتراحها اساء اليها اساءة بالغة . بعد ذلك بقليل ، على كل حال ، نشأت بينهما علاقة جنسية . واستنادا الى ترجمه حياة موري ، التي كتبها بنفسه ، والمعنونة « بين عالمين » ، فانهما كانا سيتزوجان ، لو لم تكن متزوجة ، فقد رفض جورج بانوين ـ ربما ليغيظها ـ ان يطلقها . ذهبا الى باريس. على شكل شهر عسل ، وذلك لان موري كان يريد ، من جهة أخرى ، أن يعرفها على صديقه الكبير ، فرانسيس كاركو . وبعد عودتهما الى انجلترا ، عاشا في لندن تارة ، وفي الريف ، تارة اخرى .. وكانا لا يكاد يستقر بهما المقام في مكان ، حتى تبغضه كاثرين ، فينتقلان الى مكان غيره . واخيرا ، قررا ان يقيما في باريس اقامة دائمة . وفي هذا الوقت ، اصبح موري صحفيا مشهورا ، واستطاع ان يدخر جزءا من دخله . اتفق مع سبندر ، وريتشموند ، محرر « ملحق التايمز الادبي » على ان يكتب مقالات عن الادب الفرنسي المعاصر . كانت مدخراته، وما انتظر ان يكسبه من هذه المقالات ، ومخصصات كاثرين كافية لتوفير ضروريات الحياة لهما .

استأجرا ، منذ ان وصلا الى باريس ، شقة ، وجلبا من انجلترا ، وبنفقات باهظة ، الاثاث الذي جمعاه .. التقيا بفرانسيس كاركو كثيرا. احبت كاثرين صحبته ، فقد كان جذابا ، مسليا .. ولعله جعل منها ما يسميه الفرنسيون « فرعا صغيرا من الباحة » .. سوى ان « ويست منستر غازيت » و « ملحق التايمز الادبي » رفضتا مقالات موري . ونفدت نقودهما .. لم يستطع كاركو ان يساعدهما ، بل كان ، على النقيض من ذلك ، يتسبب لهما ببعض النفقات . جن جنونهما .. وهنا تسلم موري رسالة من سبندر يخبره فيها أن وظيفة ناقد فني سوف تشغر ، عما قريب ، في « ويست منستر غازيت » .. وانه يستطيع ان يعين فيها ، اذا عاد . رجعا الى انجلترا ، على مضض ، وكان ذلك في اذار ( مارس ) عام ١٩١٤ . وتلمتاد ، عاشا هنا ، وهناك . وفي اب ( اغسطس ) اشتعلت نيران الحرب ، وانتهى بذلك عمل موري كناقد فني . انتقلا الى كوخ في « تشولسبري » ، في « باكنغهام شاير » ، حتى يكونا قريبين من « د.هـ. لورنس » وزوجته ، اللذين اصبحا صديقين لهما . وفشلا ، ذلك ان كاثرين كانت تريد حياة المدينة ، بينما كره موري تلك الحياة . ضاق بهما الحال ، فاخذت تشكو من ان موري لا يريد المال ، ولا يحب ان يكسبه . لم تكن امامه الا فرصة قليلة لكي يكسبه . وهكذا ، ضاقا ذرعا ببعضهما البعض . وما أن حل عيد الميلاد حتى كانا على يقين من انهما يكادان يفترقان . كانت كاثرين وفرانسيس كاركو يتبادلان الرسائل ، منذ ان غادرت باريس ، مع موري . ولعلها نظرت الى هذه الرسائل بجدية اكثر مما اراد هو لها ، بحيث حسبت ـ على ما يبدو ـ انه مغرم بها . اما هل احبته هي ، فامر تختلف فيه الاراء . لقد كان جذابا ، وكانت تريد ان تبتعد عن موري . ظنت ان بوسع فرانسيس كاركو ان يهيىء لها اسباب السعادة التي لم يعد موري قادرا على توفيرها لها . اما موري الذي كان يعرفه اكثر منها ، فكان موقنا من انها تخدع نفسها .. الا انه لم يحاول ان يوضح لها الحقيقة. وصل اخو كاثرين ، لسلي هارون بيشامب ، الى انجلترا ، لكي يسجل اسمه في قائمة المتطوعين ، واعطاها مالا لتذهب الى فرنسا ، وتلحق بفرانسيس كاركو . وفي يوم الاثنين ، الموافق ١٥ شباط ( فبراير ) ، رافقها موري الى لندن . وبعد ذلك بيومين او ثلاثة ، غادرتها الى باريس .

كان كاركو قد استدعي للخدمة العسكرية ، وعسكر في مكان يدعى « غري » ، في منطقة محظورة على النساء .. صادفت كاثرين مصاعب

جمة في الوصول الى هناك . استقبلها كاركو في المحطة ، واصطحبها الى المنزل الصغير الذي كان يقيم فيه . مكثت هناك ثلاثة أيام ، ثم عادت الى باريس كئيبة للغاية ، بعد أن انقشعت غشاوة الوهم عن عينيها . ولا يسع المرء الا ان يخمن اسباب كآبتها . وفجأة تسلم موري برقية منها تقول فيها انها عائدة ، وانها ستصل الى محطة فيكتوريا في الثامنة صباحا ، من اليوم التالي . اخبرته ( ويجب الاعتراف ، بشغل فظ ) ، لا تجد مكانا اخر لتذهب اليه . استأنفا العيش معا ، فيما وصفه موري عندما وصلت ، انها ليست عائدة اليه ، وانها انما تعود ببساطة ، لانها لا تجد مكانا اخر لتذهب اليه . استأنفا العيش معا فيما وصفه موري « بنوع من الهدنة المضنية » . اعطاها قرارها مادة تقصه بعنوان « اني اجهل الفرنسية » ، رسمت فيها صورة مؤذية لفرانسيس كاركو،واخرى وضيعة لموري . اعطته مخطوطها ليقرأه .. وجرحه ما قرأ جرحا بالغا ، وذلك ما ارادته ، بالتأكيد .

بوسعي أن أمر بايجاز على السنين الباقية من حياة كاثرين . في وقت ما ، من عام ١٩١٨ ، استطاعت كاثرين وموري أن يتزوجا ، بعد أن طلقها جورج باودن ، اخيرا . كانت صحتها سيئة الى حد بعيد .. ففي السنوات الماضية ، اصيبت بمختلف الامراض ، واجريت لها عملية جراحية خطيرة . اما الان ، فكانت تعاني من السل الرئوي .. فبعد أن عولجت على أيدي عدد من الاطباء ، اقنعها موري بأن تعرض نفسها على اخصائي . جاء الاخصائي .. كانت كاثرين في فراشها ، بينما انتظر موري في الطابق الاسفل ، لكي يعرف نتيجة الفحص . ولما عاد الاخصائي ، اخبره ان امامها فرصة واحدة ، وهي ان تدخل مستشفى الامراض الصدرية ، على الفور ، وانها ان لم تفعل ذلك ، لن تعيش اكثر من عامين ، او ثلاثة اعوام — او اربعة اعوام ، على اقصى تقدير.وسوف اعتبس الان من مذكرات موري : « شكرته ، وصحبته الى الباب ، ثم صعدت الى كاثرين .

قالت : يقول اني يجب ان ادخل مستشفى الامراض الصدرية .. ان مستشفى الامراض الصدرية سيقتلني . ثم صوبت نحوي نظرة سريعة ، مخيفة : أوتريدني أن اموت ؟

« قلت بملل ، لا .. فما الفائدة ؟

« أوتظن انه سيقتلني ؟

« قلت ، اجل .

« انك تعتقد باني سأشفى من مرضي .

« قلت ، نعم » .

من الغريب حقا ألا يكون الطبيب ، أو موري قد اقترح عليها ان تدخل المصح لشهر ، ثم ترى ما اذا كانت سترضى عنه . كان هنالك مستشفى ممتاز في بانخوري ، بسكوتلاندا .. واحسب انها كانت ستجد الحياة هناك ممتعة للغاية .. واني لا اشك مطلقا في انها كانت ستجد مادة لقصة ما ، فقد كان المرضى من مختلف الانواع . كان هنالك مرضى قضوا في المستشفى سنوات عديدة ، لانهم ما كانوا ليعيشوا ، او لم يعيشوا فيه .. بينما شفي اخرون ، وغادروه .. وتوفي البعض الاخر ، واظنهم ماتوا بسلام ، وبلا اسف . اني اقول ما اعلم ، ذلك انه حدث ان كنت في بانخوري ، في الوقت نفسه الذي كان من المقدر ان تكون كاثرين فيه هنالك .. وكان من الجائز أن اقابلها . كانت — بالتأكيد — ستكرهني على الفور . سوى ان هذا لم يحدث ، لا هنا ، ولا هناك .

منذ ذلك الحين ، عاشت كاثرين ، في الخارج ، سعيا وراء الصحة، بصحبة صديقتها ، ايدا بيكر ، التي رعتها . اخلصت ايدا بيكر — وكانت امرأة شابة في مثل سنها — لها الخدمة ايما اخلاص ، طيلة سنوات . وعاملتها كاثرين كما لم تعامل أي كلب .. استبدت بها ، وعنفتها ، واستغلتها باستهتار . ولكن ايدا بيكر بقيت عبدتها المحبة ، المخلصة . كانت كاثرين مولعة بحب الذات ، مستعدة لان تثور بعنف فجأة ، قليلة الصبر بشكل فظيع ، حريصة ، انانية ، قاسية ، متغطرسة ، سليطة .. وهذه الصفات لا تجعلها شخصية محببة . ولكنها كانت رائعة الجاذبية، ويقول لي كليف بيل ، الذي عرفها ، انها كانت فاتنة . كانت خارقة الذكاء ، ومسلية اذا ما شاءت ذلك . اما موري فقد اضطره عمله الى البقاء في لندن . فلم يكن يجتمع بها الا في فترات متقطعة . تبادلا عددا كبيرا من الرسائل . وبعد وفاة كاثرين ، نشر موري رسائلها اليه ، ولم يضف — بطبيعة الحال — رسائله اليها ، بحيث لم يعد بوسعك الا ان تقدر مدى علاقتهما — انذاك — ببعضهما البعض . كانت معظم رسائلها عاطفية جدا .. سوى انها كانت سما زعافا ، اذا اغاظها . زاد والد كاثرين مخصصاتها السنوية تدريجيا ، حتى وصلت الى مائتين وخمسين جنيها . غير انها كانت ابدا ، في ضائقة مستحكمة .. وذات مرة،حينما كتبت الى موري تخبره انها تعرضت لنفقات لم تكن في الحسبان،كتبت اليه رسالة تتميز غيظا ، لانه لم يرسل اليها النقود على الفور ، بل آثر ان يضعها في الموقف المهين بان تطلبها منه . لقد دفع فواتير الاطباء ، وتحمل نفقات مرضها .. كان غارقا في الديون . سألته : « لم اشتريت مرآة ، اذا كنت ، حقا ، في ضائقة مالية ؟ » كان لا بد للابكم المسكين من ان يحلق ذقنه . وعندما عين موري محررا « للاثينيوم » ( المجمع العلمي ) ، براتب سنوي قدره ثمانمائة جنيه ، تقدمت كاثرين اليه بطلب فوري بان يدفع لها عشرة جنيهات شهريا . لعله كان جميلا منه ان يوافق على أن يفعل ذلك .. ولكنه ربما كان حريصا على ماله..والدليل على ذلك ان كاثرين طلبت اليه بوضوح ، حينما ارسلت اليه قصة لطباعتها ، ان تكون الطباعة على نفقتها الخاصة . لقد تعمدت اهانته .

الواقع انهما لم يناسبا بعضهما بعضا ، منذ البداية . كان موري — مع انه أكثر انصافا — مثل كاثرين ، مختالا فخورا .. كان ، على ما يبدو ، ظريفا .. وكان رقيقا ، وديعا ، حليما ، وصابرا بشكل رائع . عندما يموت الحب ، قد تصبح الغيرة — كما نعلم — عذابا . ومع ان موري لم يعد يحب كاثرين ، الا انه لا بد وأن يكون قد شعر بالهوان ، حينما هجرته الى رجل اخر . وانه لكرم منه ، بل وشهامة ، ان يردها اليه ، بعد تجربتها المريرة مع فرانسيس كاركو . لا يوجد أي دليل على انها كانت شاكرة له حسن صنيعه ، ذلك انها اعتبرت كل ما فعله من اجلها ، حقا لها عليه . ومع ان موري كان ( بالمصطلح الحالي ) «مبتلا» الا انه لم يكن مخلوقا عديم الشأن ، فقد اصبح ناقدا حسنا .. وكان نقده لقصص كاثرين قيما بالنسبة لها . وفي سنواته الاخيرة ، كتب « حياة سويفت » (١) ، الذي يتفق — عموما — على انه افضل ما كتب قاطبة ، عن تلك الشخصية المنحوسة ، والتي كانت ايضا فريدة .

كان تشخيص الاخصائي الانجليزي صائبا . لقد اعطى كاثرين ، لتحيا ، مدة اقصاها اربع سنوات . فبعد ان امضت فترة من الزمن في الريفيرا الايطالية ، ثم الريفيرا الفرنسية، وفيما بعد ، في سويسرا،

(١) مؤلف « رحلات جوليفر » .. انظر ايضا مقالة الناقد الانجليزي جورج اورويل ، المعنونة « السياسة ضد الادب ، تحليل لرحلات جوليفر » ، المنشورة في كتاب Selected Essays بنغوين ، عام ١٩٥٧ ، وعام ١٩٦٠ . ( المترجم ) .


في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

دخلت ـ كمحاولة اخيرة ـ معهد غورديف ، في فونتانابلو ، وتوفيت هناك ، في اوائل عام ١٩٢٣ .. كانت في الرابعة والثلاثين من عمرها .

من المتفق عليه ان كاثرين تأثرت بتشيكوف . لقد انكر ميدلتون موري هذا ، وادعى انها كانت ستكتب قصصها ، مثلما كتبتها تماما، لو انها لم تقرأ اية قصه من قصص تشيكوف . وهنا ، كان ـ فيما اظن ـ مخطئا . كانت ستكتب قصصا ، بطبيعة الحال ، لان ذلك في دمها .. سوى اني اعتقد انها لو لم تتأثر بتشيكوف ، لاختلفت قصصها اختلافا بينا . تدفقت قصص كاثرين مانسفيلد من نبع وحدة ، وحساسية ، وعصبية امرأة مريضة ، لم تشعر ، قط ، بالطمأنينة في أوروبا ، التي اختارت ان تعيش فيها .. وكان هذا محتواها . اما القالب الذي كتبت فيه ، فكانت مدينة به لتشيكوف . ان الاسلوب الذي كتبت بـه القصص القصيرة ، في الماضي ، بسيط .. فهو يتألف من : آ ـ تركيب الهيكل العام ، ب ـ تقديم الاشخاص ، ج ـ ما يفعلونه ، وما يقع لهم ، د ـ النتيجة . كانت هذه طريقة متفرغة في رواية القصة ، وكان بوسع الكاتب ان يطولها بقدر ما يشاء . ولكن ، بعدما اخذت الصحف تنشر القصص ، تحدد طولها بصلابة . ولكي يستوفي الكاتب هذا الشرط ، كان عليه ان ينتهج تكنيكا مناسبا ، وان يسقط من قصته كل ما ليس ضروريا . الغرض من ( آ ) تركيب الهيكل العام ، هو وضع القارىء في حالة ذهنية مناسبة ، بقصد الاستمتاع بالقصة ، أو لاضافة المعقول اليها . ويمكن حذف هذا .. بل انه ـ عموما ـ يحذف ، في ايامنـا هذه . اما ان تترك ( د ) النتيجة ، لخيال القارىء فمغامرة ، ذلك لانه اهتم بالظروف التي وصفت .. وقد يشعر انه خدع ، اذا لم يذكر له ما ينتج عنها . سوى أن الحذف مؤثر ، وحاسم اذا كانت النتيجة معروفة .. وافضل مثل على ذلك قصة تشيكوف « السيدة صاحبة الكلب » . اما ( ب ) و ( ج ) فضروريتان ، ولا يمكن ان تقوم لقصة قائمة بدونهما . من الواضح ان حمل القارىء الى غمرة الاحداث مباشرة، يعطي القصة صبغة درامية ، تجتذب القارىء ، وتشده اليها . لقـد كتب تشيكوف عدة مئات من القصص ، على هذا النحو .. وعندما اصبح قادرا ـ بعد اتساع شهرته ـ على ان يكتب قصصا اطول ، لتنشر في المجلات ، استعمل ـ باستمرار تقريبا ـ الاسلوب الذي تعود عليه .

ناسب هذا الاسلوب مزاج كاثرين وقدرتها. كانت موهبتها صغيرة، ولكنها رقيقة .. واحسب ان الشديدي الاعجاب بها قد اساؤوا اليها ، حينما نسبوا لها ما لم يدعمه انتاجها . كانت قدرتها على الخلق صغيرة .. فالقدرة على الخلق قدرة غريبة ، وهي احدى خصائص الشباب . انها تضيع مع الكبر . وذلك امر طبيعي ، لانها وليدة التجربة . بمرور الزمن ، تفقد احداث الحياة الجدة ، والانفعال ، والاثارة التي كـانت تبعثها ايام الشباب ، ومن ثم لا تثير في الكاتب اي تعبير . لـم تكن تجربة حياة كاثرين كبيرة . كانت تعرف انها محتاجة اليها . يقول موري معترضا ، نوعا ما : « ارادت المال ، والتـرف ، والمغامرة ، وحيـاة المدينة » .. لقد ارادت ذلك بالطبع ، لانها كانت ستجد ـ عندئذ فقط ـ مادة لقصصها . آن على القصصي آن يؤدي دوره في صخب الحياة ، اذا ما شاء ان يقول الصدق كما يراه . واذا ما صح ما يقوله القاموس لنا ، من ان القصة سرد لحوادث وقعت ، أو قد تقع ، فلا بد ـ اذن ـ من الاعتراف بان كاثرين مانسفيلد لم تكن ذات مواهب بارزة في روايه القصة .. لقد انحصرت مواهبها في مجال اخر . كان بوسعها ان تأخذ وضعا ، ثم تعصر منه كل ما فيه من تهكم ، ومرارة ، وشجن ، وتعاسة.. واسوق مثلا على هذا ، الرواية التي سمتها « علم النفس » . كتبت بضع قصص ايجابية منها مثلا ، « بنات الكولونيل الراحل » ، و «صورة» وهي قصص حسنة . سوى انه كان من الجائز ان يكتبها اي كـاتب كفؤ . ان اكثر قصصها اختلافا عن سواها تلك القصص التي عرفت ، عموما ، بقصص الجو . سألت شتى اصدقائي الادباء عن مفهوم كلمـة « الجو » ، في هذا المجال .. الا انهم لم يستطيعوا ، أو لم يشاؤوا ان يجيبوني جوابا يقنعني . وقاموس اكسفورد لا يساعد . فبعد التعريف الظاهر ، يوضح « البيئة المجازية المحيطة بالعنصر الذهني او الاخلاقي»

.. ويبدو ان هذا الايضاح يرمز عمليا الى الزخرف الذي تحلى به قصة من القصة بحيث لن تقوم لها بدونه قائمة . كانت كاثرين مانسفيلدقادرة على ان تصنع هذا بسحر ، ومهارة . كانت تملك ، حقا ، قدرة هائلة على الملاحظة .. وكان بوسعها ان تصف الطبيعة ، مثل اريج الزيف ، والريح والمطر ، والبحر والسماء ، والاشجار ، والفواكه ، والازهار برقة نادرة . ولم تكن اقل مواهبها تلك الموهبة التي اتاحت لها ان تذيب قلبك اسى ، في حديث بدا ـ من كل نواحيه ـ عرضيا ، ولنقل حول فنجان مـن الشاي . ويعلم الله ان هذا ليس بالامر الهين . لقد كتبت باسلوب كلامي ساحر .. وانك لتستطيع ان تقرأ حتى اصغر قصصها بسرور . انها لا تعلق في ذاكرتك ، مثلما تفعل ، على سبيل المثال ، قصة « بول دي سويف » لموباسان ، و « جناح رقم ١٠ » لتشيكوف . ولعل السبب في ذلك انه من اليسير عليك ان تتذكر الحقيقة ، من ان تتذكر العاطفة. انك تذكر يوم سقطت عن الدرج ، ورضضت كاحلك .. ولكنك لا تتذكر كيف احسست عندما احببت . ولكن ، ان تتذكر القصة بعد قراءتها ، وما اذا كان ذلك مزيه حسنة من مزاياها ، فامر لا اجرؤ على ان ابدي فيه رأيا .

لم تجد كاثرين مانسفيلد الا القليل مما يسرها في نيوزيلندا ، عندما عاشت هنالك . ولكن افكارها رجعت ـ فيما بعد ـ الى سنوانها الاولى هناك ، عندما ساءت صحتها ، وحينما لم تعطها انجلترا ما توقعته منها . كانت هنالك لحظات تمنت فيها لو انها لم تغترب عنها . اما حياتها فيها فقد بدت تامه ، ومبهجة ، ومتنوعة. لم تجد بدا من ان تكتب عنها.. كانت قصتها الاولى بعنوان « الافتتاحية » .. كتبتها حينما كانت تمضي، مع موري ، ثلاثة شهور في باندول ، بالريفيرا الفرنسية ، وحينما كانا اكثر سعادة معا ، من اي وقت اخر . كانت تنوي آن تسميها «الصبارة». سوى ان موري اقترح ان تسميها « الافتتاحية » .. ويخيل الي انـه شعر انها كانت هيكل قصة ، اكثر منها قصة . بدأتها ـ كما نعلم ـ وفي نيتها ان تكتب رواية طويلة .. ولعلها ـ بناء على ذلك ـ جاءت مهلهلة نوعا ما . بعدها ، كتبت ، فيما كتبت من قصص ، وعلى النمط نفسه ، « الرحلة البحرية » ، و « على الخليج » ، و « حفلة الحديقة » . تصف « الرحلة البحرية » السفر لليلة ، تقوم به بنية صغيرة ، تـرعاهـا جدتها ، من ميناء نيوزيلندي الى آخر . انها في منتهى الحنان، والفتنة. اما القصص الاخرى ، فعن ابيها ، وامها ، واخيها ، واخواتها ، وابناء عمومتها ، وجيرانها .. وهي قصص طبيعية ، وحيوية ، ولذيذة . نحن نعلم انها بذلت فيها جهدا كبيرا ، وان فيها صبغة تلقائية ، محببة .. انها خالية من المرارة ، وخيبة الامل ، والشجن التي سكبت في قصصها الاخرى .. انها ـ في رأيي ـ افضل ما كتبته قاطبة .

يقال لي ان قصص كاثرين مانسفيلد لا تلقى من التقدير ما لقيته في العقد الثاني من القرن الحالي . سوف يكون من المؤسف ان تنسى .. ولا اظن انها ستنسى . على كل حال ، ان شخصية الكاتب هي من يضفي على انتاجه صبغة خاصة .. وليس مهما ان تكون سخيفة قليلا ، مثل شخصية هنري جيمس ، او مبتذلة نوعا ما ، مثل شخصية موباسان، او وقحة ، سمجة كشخصية كيبلنغ .. ولطالما ان الكاتب قادر على ان يقدمها واضحة ، وفطرية ، فسوف يبقى انتاجه حيا .. وهذا ، بالتأكيد، ما نجحت كاثرين مانسفيلد في ادائه .

ترجمة حسن بكر


**زوروا مكتبة السلام**

**السودان ـ حلفا الجديدة ص. ب ٢٣**

جميع الكتب وادوات المدارس ومطبوعات دار الآداب